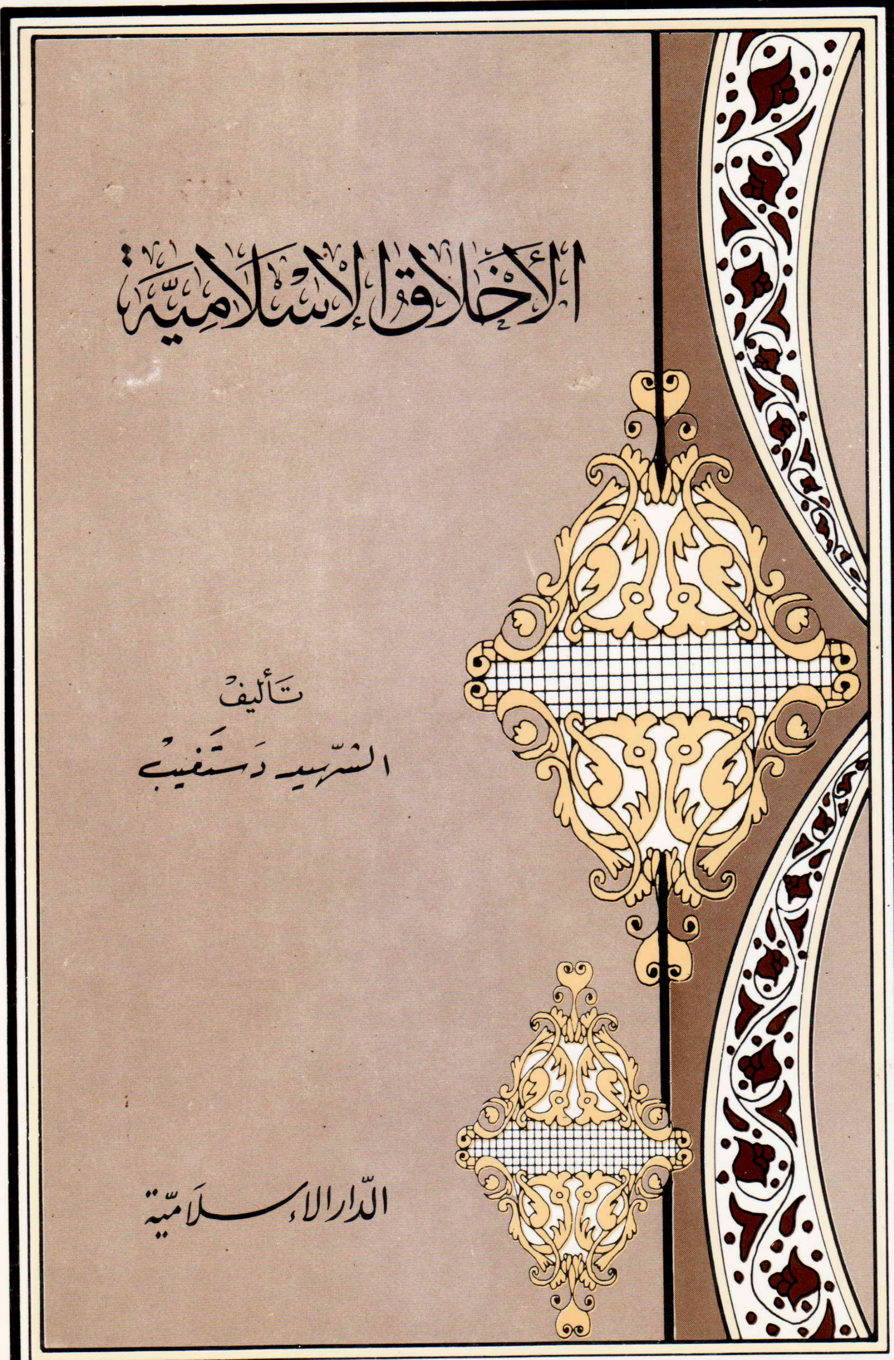


الأخلاق الإسلامية

تأليف

الشهيد دستغيب

الدار الإسلامية


الأخلاق الإسلامية

الشهيد دستغيب

الأخلاق الإسلامية

الدار الإسلامية
بيروت



الطبعة الثانية

١٤١٢هـ - ١٩٩١م



كورنيش المزرعة - بناية الحسن سنتر - طابق ثاني - هاتف : ٨١٦٦٢٧
ص . ب : ٥٦٨٠/١٤ - تلكس : ٢٣٢١٢ غدير
فرع ثاني : حارة حريك - شارع دكاش - هاتف : ٨٣٥٦٧٠ - ص . ب : ٢٥/٢٠٩

كلمـة الناشـر

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخلاق الإسلامية عنوان كبير شامل يلخص أسمى غايـة خلق من أجلها هذا الكون العظيم ، وعلى رأسه هذا الإنسان ، وهـو أفضل مـا فيه ، والكون كله في خدمته مسخّر ، ومن أجله مدبّر ، ليكـون له عـوناً عـلى بلوغ الغاية ، وعلى بلوغ الكمال .

والكمال هو درجـة القـرب من المبـدأ العـظيم ، والأخـلاق هي معـراج الإنسان إلى تلك الدرجـة الشامخـة ، وهي السبيل إليهـا ، ترعـاه في مسيرتـه البعيدة ، وتقوده إليها خطوة فخطوة ، تبصّره مواطن الأمـل ، وتدفـع به عن مواقع الزلل ؛ تأخذ بيده إلى ما فيه خيره وسعادته ، وتبعُـد به عـمّا فيه ضرره وشقاوته .

أرسل الله تعالى نبيّـه الكريم هـادياً لـلإنسان ومـرشداً ، مـزوّداً بأفضـل سـلاح يعينه في بعثتـه ، ويحقق الغايـة الساميـة منها ، مـزوّداً لقـولـه عـزّ من قائل :

﴿ وإنّك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وها هو (ص) يعلن عن الهدف من بعثته إلى الناس فيقول :

« إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق » .

فما أنبلها من بعثة ، وما أسماه من هدف ، وما أروعها من غاية ! .

وراح (ص) يحدو أمته ويرعاها ، فيأمرها بعمل ما فيه خيرها وعزّتها ، يأمرها بالمعروف ، ويجنّبها ما فيه تعثّرها ، وما فيه ضررها وذلّها ، فينهاها عنه ، ينهاها عن المنكر ، قائلاً بما أوحي إليه من ربّه :

﴿ ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ؛ وأولئك هم المفلحون ﴾ .

أولئك هم خير أمّة ؛ بل هم الأمّة الحقّة ، الأمّة الراضية المرضيّة ، التي تسودها أخلاقها ، وتسوسها أخلاقها ، وتحكمها أخلاقها ؛ وقد أجاد من قال :

وإنّما الأمم الأخلاق ما بقيت　　　فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وها هو شهيدنا السعيد السيد عبد الحسين دستغيب ، يحدّثنا في كتابه « الأخلاق الإسلامية » عن الأخلاق كما أرادها لنا الإسلام ، بكل ما فيها من شمول ، وكل ما فيها من مصابيح ومنائر تنير لنا السبيل ، وتهديتا إلى سواء السبيل ، بحديثه العذب الذي عرفتموه ، ولهجته الصادقة التي خبرتموها .

ويسرّ الدار الإسلامية أن تخطو معكم هذه الخطوة الجديدة ، متابعة نشر ما تركه لنا الشهيد الكبير من تراث غني وينابيع ثرّة ، مستمدّة من الله العون على إكمال المسيرة ، والله هو المسدّد .

الأخـلاق الإسـلامية

تقـــــديم

« **إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق** » .

محمـــد (ص)

تقـوم أعـمال ابن آدم وأقـوالـه عـلى العلم والاعتقـاد والملكـات والسجايا ، فهو حين يقـوم بعمل اختيـاري إرادي ، إنّما يصـدر في هذا العمـل عن تصوّره لمـوضوعـه ، والنفـع الـذي يتـوخّـاه منـه ، وشـوقـه لإنجازه .

فإذا أحسّ إنسان بـالعطش مثـلاً ، ويعرف أنّ المـاء قريب منـه ، وأنّ شرب الماء كفيل برفع هـذا العطش ، فهـو إذ يعرف هـذه الأمور ، يمدّ يده إلى وعـاء الماء ، ويشرب ؛ وعليـه نرى أنّ هـذا العمل العـادي المـألوف ، إذا وقـع طبقاً لـلإرادة ، فهو نـاشيء حتمـاً عن العلم ، إنّـه ناشيء ـ بتعبير آخر ـ عن تصوّر للموضوع وفائدته والاعتقاد به .

أضرب مثـلاً أيضاً عن الملكـات : فالشخص البخيـل ، إذا علم بأنّ شخصاً آخر يعاني من الحاجة ، فإنّ الإرادة بمساعدة هذا المحتـاج ، ومـدّ يد العـون إليه ، لا تـظهر لـديه أصـلاً ، عـلى النقيض من الآخـر

الكريم ، الذي ما إن يلقى محتاجاً حتى يبادر ، دون تردد ، إلى الإحسان إليه ؛ ذلك أن كرمه أوجب تحركه ومبادرته إلى الإحسان .

وهذه أمور محسوسة ، فقد صدرت بصددها أوامر خاصة في الشرع الإسلامي المقدّس ، تدعو إلى تحصيل العقائد والملكات الحسنة ، إذ بفضل ظهور الملكات الفاضلة تتوفّر نتائج متكاملة في مرحلة العمل ، وبواسطة العقائد الحقّة والعلوم الصحيحة المطابقة للواقع ، يتمّ تصحيح عمل الإنسان .

فقد وردت روايات متعددة عن طريق الأئمة الأطهار (ع) تفيد بأنّ مكارم الأخلاق في درجاتها السامية ترتبط بالأنبياء ، وأنّها عطاء إلهي ؛ وتبثّ الشوق والاهتمام لدى الناس لاكتساب الأخلاق الفاضلة[١] .

محمد (ص) في أعلى درجات الأخلاق

مدرسة الأنبياء هي مدرسة صنع الإنسان ، فالأنبياء نتاج تربية اليد الإلهية ، وقد أمروا بتربية الناس وتزكيتهم ؛ ويأتي في مقدمتهم الوجود المبارك لخاتم الأنبياء محمد (ص) ، الذي ربّاه الله عزّ وجلّ وعلّمه :

﴿ وعلّمك ما لم تكن تعلم ﴾[٢] .

كما أغناه بالأخلاق الفاضلة من كل ناحية ، لكي يكون بمقدوره أن يربي عائلته الكبيرة ، وهي أمّته ، أفضل تربية ، وحتّى قيام الساعة :

---

(١) وردت في أصول الكافي ثلاثة أحاديث في هذا الصدد .
(٢) سورة النساء : آية ١١٣ .

﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾[1] .

والله عزّ وجلّ يصفه في محكم تنزيله بقوله :

﴿ وإنّك لعلى خلقٍ عظيم ﴾[2] .

ذلك أنّ وظيفته التي خصّه بها إنّما هي تزكية الناس وتعليمهم :

﴿ ويزكّيهم ، ويعلّمهم الكتاب والحكمة ﴾[3] .

وفي معرض تربية الله جلّ وعلا لحبيبه محمد (ص) وتأديبه ، يقول أمير المؤمنين (ع) :

« لقد قرن الله به من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته ، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ، ليله ونهاره » .

وكان (ص) يقول في دعائه :

« اللهم حسّن خَلقي وخُلقي » ويقول : « اللهم جنّبني منكرات الأخلاق »[4] .

الله هو المزكّي

لا شكّ أنّ « المزكّى » تعني من زكّاه الله وطهّره ، يقول تعالى :

﴿ بل الله يزكّي من يشاء ﴾[5] .

فليس بمقدور أحد أن يزكّي نفسه ، بل هو يتّخذ من اتّباعه

---

(١) سورة الضحى : آية ٨ .

(٢) سورة القلم : آية ٣ .

(٣) سورة آل عمران : آية ١٦٣ .

(٤) سفينة البحار ج ١ ص ٤١١ .

(٥) سورة النساء : آية ٤٩ .

لأوامر الشرع المقدّس وسيلة للتزكية الإلهية ؛ فكيف يستطيع تزكية نفسه وتطهيرها في حين أنّ عليه قبلاً أن يعرف نفسه حقّ المعرفة ، فيميّز الحسن فيها من القبيح ، ليقف من ثَمّ على الطريقة والوجهة التي يتّخذها في إصلاح نفسه ؟ .

وبديهيّ أنّ الإنسان في معرفة نفسه على قدر ضئيل من الاطّلاع والإدراك ، وهو ـ بتعبير القرآن المجيد في هذا الصدد ـ ممّن يصفهم بقوله :

﴿ وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ﴾[1] .

صعوبة تهذيب النفس واكتساب الأخلاق الفاضلة

وهناك أمر آخر ، وهو أنّ طبيعة الإنسان تميل ـ منذ الطفولة ـ إلى موارد الأنس ، فهو يتعلّق بحليب أمّه ، ويتعلّق باللهو واللعب ، ثم يتطور إلى التعلّق بالمال والامتلاك ؛ ويسعى وراء حبّ الذات ، وتقوى لديه محبّة النفس ؛ وما أكثر ما نلاحظ الطفل كيف يسعى ـ لإشباع منفعته الشخصيّة ـ وراء الطعام اللذيذ والألعاب المشوّقة ؛ وكيف يعروه الاضطراب إذا لم يعط ما يشتهيه . والقرآن المجيد يقول :

﴿ ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[2] .

ويتّضح من هذا القول أنّ النفوس كافّة تخالطها صفة البخل ، فإذا ما روعي الحذر منها واتّقاؤها ، فاز الإنسان بالفلاح ، شريطة أن يسعى وراء التهذيب الخلقي ، مهما جافى هذا السعي ميول نفسه ، وإلاّ فلا علاج ! .

---

(١) سورة الإسراء : آية ٨٥ .

(٢) سورة الحشر : آية ٩ .

التزكيـة قبل التعليـم

وردت في القرآن الكريم ، وفي مـوضعين منـه ، آية تجسّـد منهج الأنبياء ، وهو تزكية النفوس ثم تعليمها ، يقول تعالى :

﴿ ويزكّيهم ، ويعلّمهم الكتاب والحكمة ﴾(١) .

ولعلّ الوجه فيهما هو أن يجري إعداد الأساس المساعد أولاً ، وهو التزكية ، ثم العمل على غرس نبتة العلم لكي تثمر ، وإلاّ :

فـالسبـخ لا يعـطي السنـابـل إنّمـا بـالحرث والإعـداد يُستقصى الأمل
والأرض مـا لم يكتمـل إعــدادهـا قدضاع فيهـا الحَبُّ، بل ضـاع العمل

فالعلم بلا عمل سينتهي إلى ما انتهى إليـه (بلعم بن باعـورا) ، ذلك العالم الفاسد الذي يمثّله القرآن المجيد بقوله :

﴿ فَمَثله كمثل الكلب، إن تحمـلْ عـليــه يلهـث ، أو تتــركْـه يلهثْ ﴾(٢) .

أو يكون صاحبه : ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾(٣) .

الأخلاق في العلم والعمل

هنـاك طـريقـان أسـاسيتـان لتهـذيب النفس واكتسـاب الأخـلاق الفاضلة ، فعن طريق العلم والعمل يغدو (التحلّي والتخلّي) ميسّرين ، أو بتعبير آخر : التزكية والتطهّر اللذان يرافقهما ويزينهما الكمال .

فمن صمّم وصـدقت عزيمتـه على التـطهّـر من رذيـل الخصـال ، والتزيّن بالأخـلاق الفاضلة ؛ عليـه بدءاً أن يعـرف ـ عن طريق العلم ـ

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٦٤ وسورة الجمعة : آية ٢ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٧٦ .

(٣) سورة الجمعة : آية ٥ .

الصفات الحسنة والسيّئة ، ثمّ يشرع باكتساب الخصال الحميدة ، والتخلّص من الملكات السيّئة ، بالطرق والوسائل التي حدّدها معلّم الأخلاق العظيم ، النبيّ الخاتم (ص) ، وأهل بيت العصمة الطهارة (ع) .

والأمر الذي ينبغي التذكير به هنا ، هو أنّه طالما كان المزكّي هو الله عزّ وجلّ ، فعليه قطعاً أن يسأل الله العون والمساعدة على اكتساب هذا الكمال ؛ فعن الإمام الصادق (ع) قال :

« إنّ الله عزّ وجلّ خصّ رسله بمكارم الأخلاق ، فامتحنوا أنفسكم ، فإن كانت فيكم فاحمدوا الله ، واعلموا أنّ ذلك من خير ، وإن لا تكن فيكم فاسألوا الله وارغبوا إليه فيها »[١] .

اهتمام الشهيد (دستغيب) بمجالس الأخلاق

كانت لشهيدنا المظلوم علاقة خاصّة بتهذيب طلّاب العلوم الدينيّة ، فكان كل يوم خميس يلقي عليهم درساً في الأخلاق ، وكان يبدي اهتماماً خاصّاً بهم ، ويقول لهم :

« عليكم أن تكونوا مثالاً ونموذجاً للأخلاق الإسلامية في المجتمع ، فكلّما زاد تهذيبكم ، زاد سعيكم في تهذيب المجتمع ، ذلك أنّ عليكم ـ قبل أن تخاطبوا الناس بأقوالكم ـ أن ترشدوهم إلى الأخلاق الإسلامية وتعرّفوهم بها ، بأعمالكم وبأخلاقكم أنتم » .

وراح ـ تأكيداً منه على وحدة طلّاب العلم والدين ـ يخصّص جلسة أسبوعية لدرس الأخلاق ، وقد استجاب لدعوته إلى هذا الدرس جمع غفير من الشبّان والشابات ؛ وقد أقيم لهذه الغاية ثلاثة عشر

---

(١) أصول الكافي ج ٢ باب المكارم ح ٢ .

مجلساً ، غير أنّ موانع عديدة حالت دون استمرارها ، وقد عزم رحمه الله أن يسعى هذه السنة وراء معاودة إقامتها ، لكنّ لقاء الله كان أفضل له ، واستلّته يد المنافقين الذين لا يعرفون الله منّا .

معرفة النفس ومعرفة الله مقدّمة للأخلاق

هذه الأبحاث المشوّقة تشرع من بحث معرفة النفس ، فعلى كلّ منّا أن لا ينسى أنّ مجيئه إلى هذه الدنيا إنّما الغرض منه الإعداد للعالم الآخر ، العالم العلويّ ؛ فعليه لذلك أن يعرف خالقه ، ويعرف وظيفته التي هو مكلّف بها تجاه خالقه .

الموضوع الآخر : هو اهتمام الشهيد بتعريف الأخلاق الإنسانيّة والحيوانيّة ، فعلى من أراد السير في طريق التهذيب أن يتعرف على الخصال كافّة ، على السّيّء منها حتّى يحذره ويتّقيه ، وعلى المحمود منها حتى يسعى في اكتسابه .

نماذج عن الخصال القبيحة

إنّ ما يعطيه المؤلف اسم الخصال القبيحة يدرج له أبحاثاً كالكبر، والحرص ، والبخل ، وحبّ الدنيا ؛ كما أنّ له أقوالاً في موضوع الغضب ، وشروحاً عن الغضب الرحماني ، والغضب الشيطاني ، كما أنّ له بياناً لائقاً ومشوّقاً في موضوع الحدّ الوسط ، فلا إفراط ولا تفريط .

وممّا يؤسف له أنّ أجله لم يمهله لاستكمال هذه الأبحاث ، وإفادة المجتمع من أقواله التي تشرح الصدر وتحيي الفؤاد .

أمّا كتابه (القلب السليم) فنحمد الله ونشكره على أن وفّقنا لطباعته عدّة مرّات ، ولا يزال الإقبال عليه كبيراً ، فقد جمع فيه مجموعة متكاملة من الأخلاق بقلم بليغ سيّال ، وأسلوب سهل المتناول ، ونرجو

الله أن نستفيد جميعنا من هذا الكتاب الممتع[1] .

ربط القراءة والمعرفة بالعمل

الأمر الذي يجب تذكّره هنا هو أنّ مطالعة كتاب الأخلاق لا يقتصر الغرض منها على المعرفة وحسب ، إنّما ينبغي ربط المعرفة بالعمل ، فالمعرفة هي المقدّمة للعمل ، والأشخاص الذين يقرأون هذا الكتاب ، إنّما تكون الحجّة الإلهية قد تمّت عليهم ، فلو احتجّوا بجهلهم فلا حجّة لهم ، إذ يقال لهم : ولماذا لم تسعوا وراء المعرفة ؟! .

فإذا ما عرفنا مفاسد حبّ الدنيا من كبر وحرص وغيرهما ، فعلينا أن نسعى وراء علاج هذه الأمراض المهلكة ، بطرائق العلاج التي يصفها لنا شهيدنا في كتابه هذا ، كما في كتابه الشريف (القلب السليم) .

لا تنسوا أداء الحق !

أذكّركم بالمناسبة ، أنّ حقّ المعلم كبير جدّاً ، كي لا نقصّر في أداء الحقوق ؛ ففي الحياة يكون أداء الحقّ مطابقاً للوضع الدنيوي ، كما يكون بعد الموت مطابقاً لوضع صاحبه .

والآن ـ وقد ارتحل معلّم الأخلاق ومهذب النفوس من بيننا ـ فعلينا أن نؤدّي له حقّه العظيم إلى المدى الذي يستحقّ ، ولو أنّ ما يستحقّه غير قابل للوفاء .

كان يهتم بالدعاء إلى خير المؤمنين ، فقد كتب في مقدمة كتابه (القصص العجيبة) يقول :

---

(١) صدر هذا الكتاب بالعربيّة عن الدار الإسلامية في بيروت .

« لقد كتبت هذه القصص كي يفيد منها الأعزّاء من بعدي ، وتكون السعادة من نصيبهم ، لعلّهم يذكروني بدعاء الخير منهم » .

أو إذ كتب في وصيّته بصدد محلّ دفنه :

« أرجو أن يتمّ دفني في مكان ينالني من دعاء العابرين فيه نصيب » .

لذا فأداء حقّه إنّما يتمّ بالاستجابة لرغباته تلك ، فلا ننساه من دعاء الخير ، كما أنّ روحه تسعد بذكر الصلوات وقراءة الفاتحة .

وكذلك رفاقه في الوفاء ، ولدي العزيز السيد محمد تقي دستغيب ، الشاب الحبيب الذي انتفع في عنفوان شبابه من كمالات جدّه العظيم ، فهو لم يدعه في شهادته وحيداً ، بل إنّه مع العديد من صحبه الأقربين قدّموا أرواحهم على طبق من الإخلاص ، وراحوا مع إمام جُمعتهم المحبوب إلى لقاء ربّهم : عبد اللّهي ، وجباري ، ومنشي ، وسادات ، وجوانمردي ، ورفيعي ، وجعفري ، وحبيب زادة . أسعد الله أرواحهم جميعاً ، وأعلى درجاتهم ، وشملهم برحمته الواسعة ، ونحن معهم ، آمين ياربّ العالمين .

شكر وعرفان

وختاماً ، أقدّم شكري وعظيم عرفاني لكل من أسهم وشارك وساعد بنحو من الأنحاء في نشر هذا الكتاب ، وأسأل الله لهم الأجر الجزيل ، بمنّه وكرمه .

الحاج السيد محمد هاشم دستغيب

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

البــــحث الأول

بســم الله الرحمن الرحيم

كُســر الســدّ فلا تجدّدوه

الغرض من إقامة هذا المجلس هو أن بعض الأمور الهامة يتـوجب تكرار الحديث عنها ، كما قال إمام الأمّة ، ليس من قبيل الأخـذ والردّ ، بل توخّياً للتأثير والتأثّر يكون التكرار ، جرياً على طـريقة القـرآن المجيد في تكراره لكثير من الأمور .

فالإمام أطال الله عمره[1] ، إذا صـدر عنه أمـر ، كان هـذا الأمر ملزماً للجميع ، وعليهم طاعته وعدم التقليل من أهميّته ، فهو في أوامره إنّما يأخذ في اعتباره المصالح الكليّة للأمّة .

ففي اليوم الذي يعلن فيه الوحـدة بين طـلّاب العلم والدين ، لا تستطيعون إعادة إقامة السدّ بينهـما من جديـد ، هذا السـدّ الذي أقـامه العهد البائد بين الجامعة والحوزات العلمية كي يلقي بالفرقـة بين هـاتين القـوّتين ، ويحـول دون اجتماعهـما ووحدتهـما ، ووقـوفهـما معـاً في وجـه الاستعمار ؛ هذا السدّ تمّ تحطيمه ، فلا تعيدوه من جديد ! .

---

(١) غني عن القول : إنّ صدور هذا الكتاب تمّ قبل رحيل الإمام (قده) بزمن طويل .

لماذا الفرقة فيما بيننا ؟!

لقد رأيتم منذ البداية كيف كانت الإهانات تُوَجّه لرجال الدين من خلال تلك القصاصات الورقيّة وبعض التقاويل ، يريدون بذلك التفريق بينهم وبين الشرائح الشابة في المجتمع ، الأمر الذي يمكّن الاستعمار من العودة مجدّداً ورمي شباكه بينكم .

لا يخفى عليكم ضرورة أن يكون الجامعيون والطلّاب وحدة واحدة ، لأنّ هدف الفريقين واحد ، وهو خدمة الناس ، فكليّة الطبّ إنّما هي لخدمة الخلق ، وكذلك الحال مع الحوزة العلمية ، فذاك يتخصّص في الطبّ ليعالج أمراض الجسم ، وذلك يتخصّص في الحوزات العلمية ويتخرّج منها بصفة مجتهد ليعالج أمراض القلب وأدواء النفس والمجتمع ؛ فلكلّ منهما هدف ، ألا وهو خدمة الخلق والبلاد ، فلماذا التفريق بينهما إذاً ؟! .

طبيب غير مؤهّل وعالم بلا عمل

لذا فعلينا أن نجتمع في هذا المكان مرّة كلّ أسبوع ، من أجل هدف ثانٍ ، ألا وهو ما قاله الإمام من ضرورة أن يتحلّى الطلّاب والجامعيون بالتهذيب ، فإن لم يتوفّر التهذيب في العمل كان الضرر على المجتمع أكبر ؛ فلو تخصص أحد في الطبّ ، وتخرّج من جامعته دون تهذيب ، فسيكون ضرره أكبر من نفعه ، والحال كذلك مع من أصبح مجتهداً ، لكنه غير مهذّب ، فضرره أكبر من نفعه بمراتب ، وقد ضرب مثالاً نموذجاً لذلك بالدكتور أحمدي ، الذي كان في العهد البائد يحقن المعارضين بحقن الموت ، كما أصدر الشيخ الزنجاني الفتوى بإعدام المرحوم النوري .

يجب أن نقرن التعلّم بالتهذيب

الدراسة وتحصيل العلم يجب أن يرافقهما تهذيب النفس والتحلّي بالآدميّة ؛ فمنهج الأنبياء يحدّده القرآن المجيد بالتزكية والتعليم ، بقوله :

﴿ **ويزكّيهم ، ويعلّمهم الكتاب والحكمة** ﴾[1] .

وإلّا فالمتعلم دون تهذيب مثله :

﴿ **كمثل الحمار يحمل أسفاراً** ﴾[2] .

أو هو حيناً يشبه (بلعم بن باعورا) الذي قام لقتال موسى (ع) مع ما كان لديه من علم . وراح يدّعي الفضل والعلوّ ، فمثّله القرآن المجيد بالكلب ، بقوله :

﴿ **فَمَثَله كَمَثَل الكلب ، إن تحمْل عليه يهلثْ ، أو تتركْه يلهثْ** ﴾[3] .

والخلاصة : يجب أن يولى تهذيب النفس من الاهتمام أكثر ممّا يولى للتعلّم ، وطريق التهذيب لا يستوي دون رياضة ، فالكدّ والتعب ضروريان ، وهذا أمير المؤمنين (ع) يقول في نهج البلاغة :

« إنّما هي نفسي أروض بها . لتأتي آمنة مطمئنّة يوم القيامة » .

الخطوة الأولى إلى التهذيب ، التفكّر

ليس بمقدورنا ـ دون بذل الجهد والتعب ـ أن نمتلك عنان النفس

---

(١) سورة الجمعة : آية ٢ .

(٢) سورة الجمعة : آية ٥ .

(٣) سورة الأعراف : آية ١٧٦ .

ونلجمها ، فالسبيل العُمدة إلى التهذيب هو طريق التفكّر والعمل ، وإليكم شرحه بإيجاز :

السبيل العُمدة كما يُستفاد من القرآن المجيد هو التفكّر ، فإنّ لرياضة الفكر طريقاً دلّنا عليها في مواضع عديدة منه ، فأمرنا بإعمال الفكر والنظر والتأمّل ؛ فعلى المرء منّا أن يستعيد التفكير ليرى بدايته ، وأن يستكشف آخرته كذلك ، أن يفكر كيف كان ، وكيف هو الآن ، وكيف سيكون ؛ ومن أين أتى ، وإلى أين هو ذاهب ، ولماذا أتى ؟ .

التفكّر في مبدأ التكوين (النطفة)

بدايتنا جميعاً ، قطرة ماء ، وأتى الأمر : يجب خلق الإنسان وتصويره ، وممّ يُخلق ؟ من قطرة ماء دافقة يُخلق ! قال تعالى :

﴿ فلينظر الإنسان ممّ خُلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب ﴾[1] .

فلو أمعن الإنسان فكره في هذا لفاز بمنافع جمّة ، لو فكّر في البناء العظيم لجسده ؛ في شكل هذا الترابط العجيب الذي أودعه الله بين أجزائه ؛ في تلك القطرة الواحدة التي صنع منها جسداً يضمّ مصانع مختلفة : من عين وأذن وكبد وغيرها ؛ من جهاز للقلب مع مصنع عجيب للتصفية ؛ وكم هي الأعمال التي يقوم بها هذا الكبد ، والدم الذي يجري في العروق بصورة دائمة ؛ وكما يقول أحد الأجلّاء :

« شرط الصورة أن تكون في موضع ثابت ظاهر منير ، في حين أنّ المصور أمر بأن تكون في ظلمات ثلاث معتمة : البطن والمشيمة والرحم ؛ وأن تكون كذلك في جوف الماء ، وهو متحرك غير ثابت ؛ ويا

---

(١) سورة الطارق : الآيات ٥ ـ ٧ .

لها من صورة عجيبة !! عين كاللوزة ، وحاجب كالميزاب ؛ والصورة من الداخل : قلب صنوبري الشكل ، ولو كان على أي شكل آخر غير هذا لما أعطى النتيجة المطلوبة ! .

هذه السلسلة من التفكير إنّما هي لمعرفة الله ، ولمعرفة عبوديّة النفس للقدرة التي لا تزول ، ولا يحدّها حدّ ، وليست لها نهاية ، للقدرة القادرة على كلّ شيء ؛ ففي هذا التفكّر يكتسب الإنسان معارفه وأصول عقائده ، ويهذّب نفسه .

وهذا الذي عرضته لكم إنّما هو في صدد المعرفة التي تقوم على إدراك علم الله وقدرته التي لا نهاية لها .

دعوا عنكم الأوهام الفاسدة

من هذا التفكر يعرف الإنسان ـ الذي كانت بدايته مجرد نطفة نتنة ـ أنّه أصلاً لم يكن يمتلك شيئاً من المعرفة والقدرة ، بل إن الـ « أنا » لم تكن أصلاً :

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾[1] ؟ .

وهو ، بعد مئة سنة أخرى ، سينتهي إلى حفنة من تراب لا أكثر ، فبدايته لا شيء ، ونهايته لا شيء كذلك ؛ فما هي هذه الـ « أنا » في الوسط ؟ .

فهذا التخيّل الذي يصور للإنسان أنّه يمتلك القدرة ، هذا الوجود الذي يضم قطعاً ـ لساناً وعيناً وأذناً وغيرهما، يتوهّمه من نفسه ؛ فعليه أن يدع عنه هذا الوهم ويصلح نفسه ، عليه أن يدرك أنّ القدرة تخصّ

---

(١) سورة الدهر : آية ١ .

غيره ، تخصّ ذاك الذي صنع هذا الجسد ، وأجبره على الحركة ؛ وهو إن أدرك هذه الحقيقة لما قال : أنا ، أنا ؛ ولصرف عنه أشكال التباهي ، وضروب التقدم والتقهقر ، وأنواع الافتخار وطلب الشهرة ، وتوهّم النفس أفضل وأسمى من الآخرين ؛ فأنا والآخرون جميعاً بداياتنا واحدة ، ونهاياتنا كذلك واحدة ، أمّا في الوسط ، فأي مزيّة تبرز في ذات أحدهم على آخر ، لا يمكن لها إطلاقاً أن تكون ذات قدرة في جلب نفع له ، أو دفع ضرر عنه ، وإلّا . . فمن ذا الذي يملك القدرة على منع الشيخوخة والانحدار عن نفسه ؟ :

﴿ وهم يُخلقون . . ولا يملكون لأنفسهم ضَرّاً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾[1] .

إنّه ينسى بدايته ، وينسى نهايته ، لذا فهو يرى القدرة في نفسه ، ويقول : أنا . . . أنا ! .

لباس (قالع الأشواك) وقصر الإمارة

يروي أهل المعرفة قصة عن (إياز) والسلطان محمود :

مما يحسن سماعه حين اتّخذ السلطان محمود من (إياز) غلاماً اختصّه لنفسه ، قصص تروى عن العلاقة الخاصّة التي كانت تربط بينهما ، فقد قرّبه إليه ، وأقامه حارساً شخصيّاً له ، وأحال إليه أعماله كافّة .

أوغر هذا الأمر صدور الأعداء والحسّاد ، فكيف بغلام يصبح على هذا القدر من القرب من السلطان ؟ فراحوا يكيدون له ويسعون به .

---

(١) سورة الفرقان : آية ٣ .

نقلوا إلى السلطان يوماً خبراً يفيد أنّ إيازاً قام بسرقة خزانة السلطان ومقتنياته ، وأخفاها في حجرة معيّنة ، أقفل بابها ، ومنع أيّاً كان من الدنوّ منها ، كما اعتاد أن يلج هذه الحجرة وحيداً بين وقت وآخر ، ليخفي فيها ما سرقه ، ثم يغادرها بعد أن يحكم إغلاقها ، فهو يرمي إلى إفراغ خزائن السلطان من محتوياتها !! وهذا ما صوّره لهم خيالهم .

لم يصدّق السلطان روايتهم ، لكنه ـ كي يضع حدّاً لشكوكهم ـ أمر رجاله بكسر باب الحجرة ، وإحضار ما يعثرون عليه فيها ؛ ولما دخلوا الحجرة لم يعثروا فيها على شيء ، اللهم سوى لباس وحذاء قديمين ، وجبّة مستعملة من الصوف ، فأحضروا حفّاراً ونبشوا أرض الحجرة ، لكنهم لم يعثروا على شيء .

أخبروا السلطان بما جرى ، فأمر بإحضار إياز ، وقال له :

كيف تخصّص حجرة من أجل لباس وحذاء قديمين ، ثم تقفل بابها ، وتضع نفسك موضع اتّهام ؟ هل ترمي إلى جعل نفسك مورداً لسوء الظنّ ؟! .

قال إياز :

سأخبرك حقيقة الأمر أيّها السلطان ، فأنا في البداية لم أكن سوى قالع للأشواك والأعشاب ، لا أكثر ، وقد بلغت الآن مرتبة جعلت مني وزيراً للسلطان ؛ فلكي لا أنسى بدايتي ، وضعت لباس قلع الأشواك في هذه الحجرة ، وأنا أدخلها كلّ يوم كي احتفظ بذكرى بدايتي ، وأقول لنفسي :

احذر يا إياز ، فأنت لم تكن سوى قالع للأشواك ، وهذا لباسك شاهد عليك ، وعليك إذ ترتدي الآن ثياب الجاه والعزّ أن لا تنسى بدايتك ، فلا يأخذك الغرور ، فيدفعك إلى التجاوز والخيانة . .

وتنتهي القصة إلى أنّ السلطان سرّ كثيراً ، وزاد في تقريبه إليه .

هـذه القصة هي لكـلّ فرد منّـا ، « فلينظر الإنسـان ممّ خلق » ، لينـظر كلّ منّـا إلى بدايتـه إذ لم يكن سوى تلك القـطرة النتنة ، وليـذكر آخرته أيضاً ، ليكن قبره ماثلاً أمامه ، فإلى جيفة ستكون نهايته !! .

وكم هو بليغ ما قاله الإمام : « على رئيس الجمهورية أن لا ينسى أن الأمّة أحضرته من (باريس) ، ورئيس الوزراء كذلك ، عليـه أن لا ينسى أنّ الأمّة أخرجته من السجن ، لئلا يغرّهما ويخدعهما ما هما فيه من مقام » ! .

النسـيان أسوأ بلاء

يقول أهل المعـرفة : أسـوأ البلاء بـلاء نسيان الـذات ، إذ يُضيع الإنسان نفسه وينسى من وما هو :

﴿ نسُوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾[1] .

. . وينسى أين كـان ، وأين هو كـائن ، وأين سيكـون ؛ كـلّ مـا يشغله أمور خارجة عن ذاته ، ولا يربطهـا بحقيقته شيء ؛ هـو مشغول بـالمال والجـاه وغيرهمـا من المشاغـل ؛ فدنيـاه كلّها شغـل بالمـال والجـاه والرئاسة والشهوة ، فالرونق والبريق يشغلان ابن آدم عمّا عداهمـا فينسى نفسه ؛ تشغله أمور الدنيا من شهرة وتقدّم وتسـابق ، يكفيه من جهـوده قـول الآخرين لعمـل يعمله : أحسنت . . . بارك الله ؛ فتيـات في سنّ السادسة عشرة أو السابعة عشرة . . كيف ترضى إحداهنّ بكلمـة خداع واحـدة ، حتى تراهـا مستعدّة لمفـارقة قـومها ؟! الصحف اليـومية تبـاع بكثرة ، وتطرق بأخبارهن أبواب البيوت كلّ ليلة ! أو بعض الشباب . . كيف تخدعهم كلمة واحدة من الخداع ؟! .

---

(١) سورة الحشر : آية ١٩ .

الخضوع هو لله وحده

لا يجـوز لابن آدم أن يخضع لأي مـوجود سـوى لربّـه ، فسجوده وخضوعه همـا لله وحده ، وهو والآخرون عبيـد محتاجـون إلى الله وفقراء إليه :

﴿ يـا أيّهـا النـاس ، أنتم الفـقـراء إلى الله ، والله هــو الغـنيّ الحميد ﴾[1] .

ليس لطبقة من الناس أي فضل أو امتياز على غيرها من الـطبقات عند الله ، فمعيار الفضل عند الله هو التقوى ؛ فلا معنى لأن يكون فرد تابعاً لفرد آخر ، أسيراً لفرد آخر ، فذلك هو محض عبادة الهوى ، فهل بعد هذا من مذلّة ؟! .

الحريّــة في التقــوى

يقول أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة .

« إنّ تقوى الله عتق من كل ملكة » .

فكـل امرىء ينهـج نهج التقوى يكـون حـرّاً ، غـير أسـير لنفسـه وهـواه ؛ أمّا من لم يكن من أهـل التقوى ، فهـو ذليل خـاضع لـرغبات نفسه ، على قول الشيخ البهائي أعلى الله مقامه : فهـو لو رُفـع الحجاب لرأى أنّه إنّما يسجد أمام كلب ، ويخضع له ، وذلك هو كلب النفس .

إنّـه يتطلّع إلى الـرئاسـة ، فما أكـثر غصص المـذلّـة التي عليـه أن يتجرّعها ! ولعلّكم لم تنسوا صورة أحد الحكّام وهو يقف بذلّة أمام أحـد ملوك الاستكبار ، ذلك أنّه كان عبداً للمُلك والرئاسة ، ويرى أنّه مـا لم

---

(١) سورة الفاطر : آية ١٥ .

يرتبط بذلك المستكبر ويذلّ له فلن يفوز بمنصبه ، لذا تراه ينحني أمام أوامر الإذلال الصادرة إليه عن ذلك الأجنبي !! .

فمن راح يبحث عن حرّيّته تحت مذلّة النفس فالشأن شأنه ، كما يعبّر رسول الله (ص) عن ذلك بقوله :

« المحيا محياكم ، والمهات مماتكم » .

فيا أيّها الذين لم يحنوا رؤوسهم بالمذلّة لأي شيء ، من مال أو جاه أو شهوات ، أنتم الأحرار ، فلستم أسرى لأيّ شيء ، لأنّكم لم تحنوا جباهكم إلاّ لجهة واحدة ، إلاّ لله عزّ وجلّ ؛ وقد أجاد الشاعر إذ قال :

برحاب قدسك يا إلهي نركع فقراً ، ونرجو العفو بل نتضرّع

أربعة عشر قَسَماً لأهمية تهذيب النفس

لم يرد التأكيد على أمر في القرآن المجيد كما ورد في تهذيب النفس ، فتهذيب النفس يعني جعلها حرّة ، يعني تحريرها من قيود الهوى والهوس .

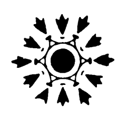
ففي سورة (الشمس) أقسم الله عزّ وجلّ أربعة عشر قسماً ، قال تعالى :

﴿ والشمس وضحاها . . . قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها ﴾ .

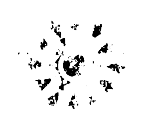
أقسم سبحانه بالمهم من مخلوقاته وبالعظيم من موجوداته ، بأن من زكّى نفسه فقد أفلح ، وفاز بالحياة الطيبة ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وأنّ الويل ، كلّ الويل ، لمن لم يمتلك زمام نفسه ، فأطلق لها عنان الشهوات وأضلّها ، فلم يعد بمقدوره لجمها ، فخاب منه المسعى .

علينـا إذاً ، أن نسعى في تهـذيب أنفسنـا ، أن نعـطي للحقـائق أهمّيتها ، أن نستخلص منها إنسانها ، فلا نلقي حبلها على غاربها .

وخـلاصة بحثنـا اليوم هي أنّ علينـا أن لا ننسى إعـمال الفكـر في مبدأ خلق أجسادنا ، كي نقلّل من غرور أنفسنـا ، علاوة عـلى معرفتنـا بعلم الله عزّ وجلّ وقدرته .



[illegible]



البحـــث الثـاني

بسـم الله الرحمن الرحيم

﴿ فلينظر الإنسان ممّ خُلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين لصلب والترائب * إنّه على رجعه لقادر ﴾ .

كان سياق بحثنا في لزوم التفكّر ، فكل قـوّة أودعها الله تعـالى في الإنسان ، إنّما أودعها من أجل غاية ونتيجة ، وعلى الإنسـان إعمال هـذه القوة ، وإلاّ فهو مسؤول ، كـما أنّه سيحـرم من الخيرات والـبركات التي تكون هذه القوة وسيلته للوصول إليها .

إنّها القوّة العاقلة ، فالعقل والتفكر هما أكبر نعمة أنعم الله بها على البشر ، وأكـبر امتياز يميّـز الإنسان عن الحيـوان ، وما قـوله سبحـانه في كتـابه المجيـد : ﴿ **ولقـد كـرّمنـا بني آدم** ﴾[1] إلاّ بـاعتبـار هـذه القـوة العـاقلة ، التي إن سخّـرهـا الإنسـان في عمله ، بلغ تلك السعـادة التي خُلقت وأُعدّت له ، وإلاّ ذبلت هذه القوة وتلاشت ، وتكون النتيجة أن يصل أحياناً إلى أسفل السافلين .

يقول تعالى في سورة (الملك) في صدد أهل جهنم :

---

(١) سورة الإسراء : آية ٧٠ .

﴿ كلّما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ﴾ ؟[1] .

فيكون جوابهـــم :

﴿ لو كنّا نسمع أو نعقل ، ما كنّا في أصحاب السعير ﴾ ![2] .

« فلينظر » ، على الإنسان حتماً أن يتفكّـر ممّ خُلق ، كي يتعرّف بفضل هذا التفكّـر على خـالقه ، وكي يـدرك كم من الأجهزة كـوّن من هـذه القطرة النتنـة ، من نطفـة إلى علقة ، ثم إلى مضغـة ، وبعدهـا ، ذلـك الهيكـل العـظمي المـترابط ، الـذي ينبت عليـه اللحم فيكسـوه ، فيكتمل ، ثم بعد ذلـك يفيض عليه الـروح والنفس الناطقـة ؛ فإذا مـا جـاء إلى هذا العـالم ، وبلغ رشده ، لـزم أن يفكّر : مـاذا كنت ، وماذا أصبحت ؟! .

النشء بدون منشيء محال

أول التفكر : هل يمكن لمـوجود أن يـوجد من نفسـه ؟ لا ، فكلّ موجود لا بدّ له من موجد .

يقول المرحوم السيد ابن طاوس في كتابه (كشف المحجّة) :

« هذا المعنى (أي كل موجود لا بدّ له من موجد) : هو من فطرة الإنسان ، فمنذ اليوم الذي يبلغ فيه حدّ التمييـز والشعور يـدرك أنّ كلّ أثر ذي عليّة يتحقّق في الخارج ، أي يظهر ، لا بدّ له حتماً من محقّق .

ويضرب مثـالاً فيقول : لـو أنّ طفـلاً ابن سنتـين أو ثـلاث كـان جالساً ، وأتى أحدهم من خلف ظهره محاذراً أن يشعر به ، ثم لوّح أمام عينيه بشيء ما ، فإنّ الطفل ، وقبل أن يمدّ يده إلى ذلك الشيء ، يلتفت

---

(١) سورة الملك : آية ٨ .

(٢) سورة الملك : آية ١٠ .

لـيرى من أحضره ، إنّه يفتّش عمّن أحضر الشيء ، ذلـك أنّـه يفهم أنّ هذا الشيء لم يكن موجوداً من قبل ، فإذ وُجِد الآن ، فهو يريد أن يرى من أوجده » .

إنّ من البديهيّات الأوليّة الفطريّة لدى الإنسـان ، أنّ كل مـوجود لا بدّ له قطعاً من موجد ، وتُعرف خصائص الموجِد من الموجود نفسه ، فـإن تحلّى المـوجـود بـالعلم والحكمـة ، عُـرف أنّ مـوجِـده عليم حكيم مطلق ، وأنّه محض القدرة .

لـو قال أحـدهم إنّ سـاعتـه صُنعت من نفسهـا ، أو إنّ حيـوانـاً صنعها ، فهل يصدّق قوله أحد ؟ من البداهة بمكـان أنّ من صنع هـذه الساعة على ما هي عليه من دقّة وانتظام في العمل ، وما فيها من أجـزاء مترابطة ، صغيرة وكبيرة ، وكل منها ينجـز عملاً خـاصاً بـه ، بديهي أنّ ذلك الصانع ذو علم ومقدرة ، ضمن حدوده بالطبع .

إنّ علم المـوجد وقـدرته تُعـرفـان من المـوجـود نفسـه ، ولـو دقّق الإنسان في جسده بدءاً من الدماغ في رأسه وانتهاء بأصابع قدميه ، فهل سيرى عرقـاً واحداً أو عصبـاً دون نفع أو حكمـة ؟ أبداً ، ففي جميعهـا تتوفّر الحكمة والمصلحة .

الأظفار وطرح الفضلات وارتكاز الأصابع

سنعـرض لاثنـين من أعضـاء الجسم قلّما يثـيران انتبـاهنـا ، فمن أجزاء الجسم الأظفار ، ونحن نعلم أنّ الجسم يطرح الفضلات الـزائدة عن الأغـذية ممـا لا نفع ولا حـاجة للجسم فيـه ؛ وهذا الـطرح يتم إمّا بواسطة الـدفع أو عن طـريق المسامّ ، كـما أنّ قسماً آخـر يُدفـع به عن طريق الأظفار ، فما هي الحكمة منهـا؟ وما هو الغرض من الظفر بشكله الذي هو عليه ، ووضعه الثابت المحكم ؟ .

لقد ذُكر الكثير عن الظفر ، فهو بما يمتاز به من إحكام وثبات بمثابة متّكأ ومرتَكز للأصابع ، ونحن نعلم أنّ الإنسان ينجز الكثير بواسطة أصابعه ، فهو يتناول أشياء ويضع أخرى ، الثقيل منها والخفيف ، لذا فهو بحاجة إلى مرتكز للضغط الذي يعرض للأصابع ، فلو لم يوجد الظفر ، وبالتالي لم يوجد المتّكأ لما أمكنه التقاط جسم ثقيل ، لذا نرى أنّ الظفر إذا انتُزع من أصله ، كان سبباً لصعوبات جمّة يلقاها صاحبه عند تناوله للأجسام ، الأمر الذي يشعره بعدم الارتياح ؛ فكم في هذا الظفر الذي يتموضع في مقدّمة القدم ، والذي كثيراً ما نرمي به بعيداً ، كم فيه من خصائص تخفى علينا ! .

تخصّر أخمص القدم يمنحها سهولة الحركة

كان الإمام الصادق (ع) يتبادل مع حكيم هندي الحديث عن جسم الإنسان والحكمة من خلق أجزائه كما شاء الله لها أن تكون ، ووصل بهما الحديث إلى خلق القدم والعلّة في تقعّرها عند الأخمص ، فسأل الإمام (ع) الهنديّ عن ذلك فأعيته الإجابة ، فقال (ع) :

« جُعلت القدم متخصّرة لأنّ الشيء إذا وقع على الأرض جميعه ثَقُل ثِقْل الرحى ، إذا كان على حرفه دفعه الصبي ، وإذا وقع على وجهه صعب ثقله على الرجل »[1] .

وقد ضرب (ع) بهذا مثلاً يبيّن فيه أنّ تخصّر أخمص القدم ، أي تقعّر وسطها ، يمنحها السهولة في الحركة والراحة في المشي .

« ألا يعلم من خلق » ؟

ألا يمتلك خالق هذا البدن علماً ؟ هل هو مادّة لا تعقل ؟ هل يقبل وجدانك هذا الكلام ؟!

---

(١) بحار الأنوار ج ٦١ ص ٣١٠ .

تقول : لقد ذهبنا إلى كلّ مكان ، وها هم قد وصلوا إلى الكواكب الأخرى ، وجابوا كلّ الأنحاء ، فلم يروا إلهاً !! .

عليك أن تفهم ، وتجعل عقلك قاضياً : فإلى أيّ حدّ يبلغ بصرك وأبصار الآخرين ؟ العين الحيوانية التي تشترك فيها الحيوانات كافّة ، هي مادّة في جسم ، وتستطيع رؤية الجسم المركّب والكثيف ، فكيف بها لا تستطيع رؤية جسم لطيف كالهواء مثلاً ؟ وكيف تنكر كلّ شيء لا تراه ؟ فالهواء يحيط بالكرة الأرضيّة ، وهو جسم مركّب ، ولكنه لطيف ، ولذلك فالعين لا تراه ، غير أنّ الإنسان يحسّ به ويتنفّسه دون أن يتوقّع رؤيته ، أو أنّ كأس ماء نظيفة مملوءة بماء صاف نقي ، فهي لا تعطي انطباعاً لمن ينظر إليها بأنّها مملوءة .

والخلاصة : فشرط الرؤية توفّر مقتضياتها ، وعدم وجود الموانع ؛ هل بمقدورك إنكار قوة الكهرباء ؟ مع أنّك لا تراها ؛ هل بمقدورك رؤية نفسك ؟ .

العقل لا يقول أبداً بأنّ كلّ من وما تراه ليس موجوداً .

برهان بسيط على المعاد

« إنّه على رجعه لقادر » : وكذلك الأمر بالنسبة للمعاد ، فبعد إعمال الفكر في هذا الجهاز العظيم ، جسد ابن آدم ، فإنّ سؤالاً يطرح نفسه : هل الذي خلق هذا الجهاز العظيم ، لم يكن له غرض من خلقه ؟ وسؤال آخر : من أجل ماذا أودعت كل هذه المظاهر من علم وحكمة لدى المخلوقات ، ثم دُفعت للعمل ، لماذا ؟ وهل تمّ خلق الإنسان من أجل هذين اليومين في الحياة الدنيا ، يأكل فيهما وينام وينجب ، وينشغل بالشهوات والغضب ، ثم يموت ، وينتهي الأمر ؟ إنّه عبث باطل إذاً ! :

﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً ، وأنّكم إلينا لا تُرجعون ﴾[1] ؟ .

الحقّ أنّه لولا المعاد لكان عالم الخلق لغواً وباطلاً وعبثاً ، فأن يوجد الإنسان ليأكل ، ثم يفرغ ما أكله ، ليعاود الأكل من جديد ، فهذا دوران غير عقلاني .

ولو أنّ الوحي أيضاً لم يكن ، لحكم ابن آدم ، طبقاً لعقله ، بأنّه لا بدّ من وجود حياة أخرى وعوالم أخرى من أجلها خُلق الإنسان ، وإلّا فهذا العالم لا يصحّ أن يكون موطناً دائماً وموئلاً أصيلاً لبني البشر ، لما فيه من مصاعب ومتاعب وآلام ، وأمراض وعلل ، وما فيه من ابتلاء بحسد الحاسدين وشرور الأشرار ؛ ولا بدّ إذاً من عالَم آخر . حيث السعادة الدائمة والرضى المطلق ، فهذا العالم إنّما هو موطن الحيوان ، أمّا الإنسان ففي الآخرة موطنه .

يتساءلون : كيف للإنسان بعد أن يتحوّل إلى تراب ، وما يطرأ عليه من تبدّلات مختلفة ، كيف يعود إلى الحياة من جديد ؟ .

والجواب هو ما تضمنته الآية الكريمة : « إنّه على رجعه لقادر » .

ففي العالم الترابي نموذج عن أصل القدرة والعلم الإلهيين ، يقول تعالى :

﴿ وإنْ من شيء إلّا عندنا خزائنه ، وما ننزّله إلّا بقدَر معلوم ﴾[2] .

فالخزائن في عالم الغيب تنشر قطرات من مكنوناتها في هذا العالم ، عالم المادة ، فإحدى خزائن الغيب مثلاً ، تختزن الروائح الزكيّة ، التي

---

(١) سورة المؤمنون : آية ١١٥ .

(٢) سورة الحجر : آية ٢١ .

أصبحت ذرّة منها جزءاً من عالمنا هذا ، ومنها أنواع الرياحين والورود والعطور ، والتي هي أصلاً من عبير محمد وآله عليهم الصلاة والسلام ، والذين هم بدورهم أصل وجود الجنّة .

وعطور الدنيا محدودة بقدر وزمن معيّنين لا يمكن تجاوزهما ، فالعطر يفوح لمدّة معيّنة ثم يتلاشى ؛ أما روائح الجنّة فغير ذلك ، وبناء على رواية تروى عن الإمام الصادق (ع) ، فإنّ روائح الجنّة يفوح عطرها حتى ألفين من السنين .

ومن المفيد ذكر تتمة الرواية ، فهي تتضمن أنّ قاطع رحمه والعاقّ لوالديه لا يجدان ريح الجنّة ، أي إنّهما بما قدّما من ذنوب لن يكونا من أهل الجنّة .

النعم الباقية « أُعدّت للمتّقين »

أعدّ الله عزّ وجلّ النعم الباقية لأهل التقوى من عباده ، فقال في محكم تنزيله :

﴿ وجنّةٍ عرضها السموات والأرض أُعدّت للمتّقين ﴾[1] .

وقال عزّ من قائل :

﴿ وأُزلفت الجنّة للمتّقين ﴾[2] .

إنّما بشرط أن لا يُخلدوا إلى الأرض فيتّبعوا أهواءهم ، كذلك الذي :

﴿ أخلد إلى الأرض واتّبع هواه ﴾[3] .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٣٣ .

(٢) سورة الشعراء : آية ٩٠ .

(٣) سورة الأعراف : آية ١٧٦ .

ذلك أنّ البواطن تتكشّف يوم القيامة ، حيث تتجلّى غلبة المعنى على الصورة وينكشف ما كان في الدنيا مستوراً : ﴿ **يوم تُبلى السرائر** ﴾[1] .

الحقّ أنّ الإنسان عجينة عجيبة ، تحتوي على نموذج من كلّ موجود ، وتكتمل صفاته فيه : فهو في الوحشية أشبه بالذئب أو النمر المفترس ، وهو في الشره أشبه بالأنعام المجترّة ، وهو في الشبق وشدّة الشهوة أشبه بالخنزير ، وهو في الشعوذة والمكر أشبه بالثعلب .

ومن ناحية أخرى فإنّ إرادة الخير ومحبّة مدّ يد المساعدة والعون ، الصفتين اللتين هما من صفات الملائكة ، تتوفّران في الإنسان أيضاً ؛ فهو يستطيع خلال مدة وجوده في هذه الدنيا أن يتكامل مع أي صفة يختارها من هذه الصفات .

فعلى أي خصلة سيقع اختياره ؟

فإن كان همّه في الحياة بطنه ، فقد تكامل مع الحيوانات المجترة ، فإذا ما غادر الدنيا غادرها دون معرفة أو كمال ، فهو لم يختزن في باطنه سوى خصال البهائم والأنعام ؛ كما أنّ بمقدوره أن يتكامل في الوحشية والغضب مع الوحوش المفترسة ، وفي شدّة الشهوة مع الخنزير أو يزيد ، أو في طلب الترؤس والعلوّ مع النمر ، الذي هو مثال للمتكبّر ، يقال إنّه إذا كان في سفح جبل ورأى إنساناً أو حيواناً يتحرّك فوقه ، اندفع إليه ومزّقه ، فهو لا يتحمّل رؤية من يقف أعلى منه ، أمّا من كان دونه ، فهو لا يتعرّض له ، طالما لم يكن جائعاً .

والإنسان في طلبه للرئاسة والعلوّ ، يصل به الحال إلى التوسّل

(١) سورة الطارق : آية ٩ .

بكل وسيلة ينال بها من كرامة أو جسد مَن يتقـدّم عليه ، كي يـزيحه عن طريقه ويسبقه ! .

حتّى المدرّس تراه يتحرّى كلّ وسيلة تميّزه عن طلاّبه أنفسهم ، إذا كان من محبّي العلوّ والتسامي فوق الآخرين .

والخلاصة : ففي باطن الإنسان يستقرّ نموذج عن كـل موجـود ، فعليـه إن استـطاع أن يلجم نـوازع العلوّ في نفسـه ، فــلا يسعى وراء الزعامة والشهرة ، رجاء أن يفوز بالفلاح ؛ فـإنّ نفس الإنسان تبلغ من الـوضاعـة حدّاً تجعله يلقي بنفسـه في المهالـك لقاء كلمـة استحسـان أو كلمة مديح تقال له ! .

الحرص يدفع إلى الجريمة

يقـع الإنسان أحيـاناً فـي عـاهة الحـرص ؛ وحبُّ الادّخار صفـة واضحـة عند بعض الحيـوانات والحشرات ، وخصـوصاً لـدى النمـل ، فالنمل نمـوذج للحرص عـلى تأمـين الآتي من الأيام ؛ أمّـا الإنسان فهـو يفوق النملة أو الفأرة في الحرص ، وكان محمد رضا يرسل بـالملايـين من الأموال إلى الخارج ، يـدّخرهـا لليوم الـذي ينتظر فيـه طرده من بلده ، والحرص صفة ذميمة حقيرة ، تدفع صاحبها إلى ارتكاب الخيانة والسرقة والغش والاحتكار و. . . إذ هو يتوهم أنّه سيخلد في هذه الدنيا[1] .

وهنـاك أيضـاً من يسـير في حيـاتــه سـيرة المــلائكـة ، فيصبــح (إنساناً) ، وهذا الأمر قطعاً ليس بالسهل الهيّن ، فأن تصبح رجل دين فذاك ليس صعباً ، أمّا أن تصبح إنساناً ، فمن الصعوبة بمكان ! .

عـلى كلّ منّـا أن يسعى ليكون متـواضعاً ، خـادمـاً لـلآخـرين ،

---

(١) ﴿ يحسب أنّ ماله أخلده ﴾ سورة الهمزة : آية ٣ .

محاذراً النزوع إلى العلوّ ؛ وأن يذكر على الدوام بدايته ونهايته ، إذ كان في البداية نطفة قذرة ، وسينتهي إلى جيفة مذِرة .

لا بدّ سمعتم بما جرى مع أمير المؤمنين (ع) وغلامه قنبر في السوق ، وهو خليفة ، إذ ابتاع قميصين ، وقدّم لغلامه أفضلهما ، فقال قنبر :

أتعطيني أفضلهما وأنت مولاي ، وخليفة المسلمين ؟! .

قال ما مؤدّاه :

إنّي أستحيي من الله أن أرجّح نفسي عنك ! .

فعلي (ع) مخلوق ، وقنبر مخلوق كذلك ، فإن كان لعليّ (ع) مقام ، فالله من أعطاه هذا المقام . أمّا في الخلقة فهما سواء ، وما فعله أمير المؤمنين (ع) إنّما هو الخط الذي يتوجب على محبّيه أن يختطّوه لأنفسهم ، فلا يتحرّون الاستعلاء على الآخرين ؛ على كل منهم أن يكون مع الغير كما كان الإمام مع قنبر ، فلا يميّز نفسه عنه ، ولا يتمنّى الراحة لنفسه والتعب للآخرين ، بل عليه أن يتحمّل العناء في سبيل الغير ، وأن يتفانى في خدمتهم ، ويسعى في راحتهم مهما ناله في ذلك من تعب ومن نصَب .

يتحمّل العناء من أحد زوّار الحسين (ع)

يروي أحد الثقات عن طالب من طلّاب المرحوم الشيخ حسين قلي ، أحد مجتهدي النجف الأشرف ، أنّه قدم على أستاذه يوماً فسأله :

أخبرني ، ما الذي عملته أمس ؟ .

قال : لا شيء ! .

قال : ما الذي عملته في الليل ؟ .

قال : لا شيء ، كنت نائماً ! .

فقال الشيخ : هذا غير ممكن ؛ قصّ عليّ ما فعلته في الليلة السابقة !! .

قال الطالب : نزل بنا في الليلة السابقة ضيوف قدموا من كربلاء لتأدية زيارة (الغدير) ، وكانت لدينا حجرة واحدة صغيرة ، نمنا فيها جميعاً بعد العشاء ؛ وكان الوقت يقترب من منتصف الليل ، حين أيقظني من نومي ثقل يضغط على صدري حتى ضاق معه تنفّسي ، نظرت فإذا بأحد الضيوف قد ألقى برجليه على صدري خلال نومه .

هممت بإزاحة رجليه عن صدري ، لكني فكّرت بأنّه ضيفي ، وهو من زوّار الحسين (ع) ومن أهل العلم ، وقد أوصانا رسول الله (ص) فقال : « أكرموا الضيف » ؛ فصبرت على الضيق حتى أبعد بنفسه رجليه عن صدري ، وهذا كلّ ما في الأمر .

قال الشيخ : تلك هي إذاً علّة ما لاحظته من إشراق في وجهك ، لم يسبق لي أن رأيته من قبل ؛ أو تظنّ أنّك أتيت عملاً قليلاً يا بنيّ ؟! .

إن لم تكوني يا نفس وردة ، فلا تكوني شوكة

على الإنسان أن يسعى في راحة غيره لا أن يحرص على راحته هو ، ولو كان الآخر واقعاً في الضيق ! .

عليه أن يسعى في رفع الأحمال عن ظهور الآخرين ، لا أن يثقل عليهم بأحماله ! .

عليه أن يقيل عثرة من عثر منهم ، لا أن يرميهم في هاوية العثار ! .

عليه أن يسعى في حفظ كرامة الآخرين ، لا أن يسعى في هدر كراماتهم ! .

عليه أن يعمل على رفع جوع الآخرين ، لا أن يسلب رغيف الخبز من أفواههم ! .

إنّه بين خصلتين : خصلة الملاك ، وخصلة الحيوان ، فلينظر أيّهما يختار ! .

الحيوان لا يرضى بخدمة الآخرين ، أمّا الملاك فعمله الرحمة وأداء الخير للآخرين ! .

والخلاصة : فهي نفسك ، فكيفما صنعتها . . فسترى صنيعة نفسك ؛ فإذا صنعت منها ذئباً أو ثعلباً أو بهيمة ، فهناك . . ستكون كما صنعت ؛ أمّا إن سوّيت منها ملاكاً ، فهناك . . ملاكاً ستستوي ؛ وما لم تبلغ بها صفة الملاك ، فمكانك لن يكون في الجنة ، وفي الملكوت الأعلى ! وما لم تجعل من نفسك رفيقاً للملائكة ، فلن يفدوا أفواجاً لزيارتك[1] ؛ فليلتك الأولى في القبر . . أمّا بعد القبر فستحشر في عوالم أخرى ، على الصورة التي صنعتها لنفسك .

أمبشّر وبشير ، أم منكر ونكير ؟

سمعنا جميعاً أنّه يحضر إلى الميت في أول ليلة له في قبره ملكان لسؤاله واستنطاقه ، ويُعرفان باسمي (منكَر ونكير) ، والمعنى مشتقّ من النُّكْر ، أي الشدّة والقبح ، بمعنى إنزال الضرّ والإزعاج .

ومنكر ونكير هذان ، لمن ؟ للشخص الذي لم يستو إنساناً آدميّاً ؛ أمّا من كان إنساناً حقّاً فليس له منكر ونكير ، إنّما له مبشّر وبشير ، يأتيانه بالبشرى وبالأخبار السارّة المرضية .

---

(١) ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب ﴾ سورة الرعد : آية ٢٣ .

ورد في دعاء شهر رجب : « . . وأرِ عيني مبشّراً وبشيراً ، ولا تُرِ عيني منكراً ونكيراً » .

فهناك إذاً ملكان لا أكثر ، وهما مبشر وبشير لمن آمن وأصلح ، ومنكر ونكير لمن ضلّ وأفسد ؛ فليس هناك سوى ما جنت يداك من عمل ، ولا شيء سواه :

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها   إلّا التي كان قبل الموت بانيها
فإن بناها بخير طاب مسكنها   وإن بناها بشرّ خاب حاويها

وتنسب إلى أمير المؤمنين (ع) أشعار قالها في هذا الصدد ، ومضمونها أنّ متاع كل شخص بعد الموت ، إنّما هو ما أعدّه لنفسه بنفسه قبل موته ، فإمّا أن يبني بيتاً لا يزيد عن شبرين بشبرين ، أو يبني بيتاً سعته مدى العين ؛ فإن كان ذا سعة في وجوده ، فليس أمامه شدّة أو ضيق ؛ ذلك أنّ السعة بعد الموت تتبع سعة الصدر قبله .



[illegible]
[illegible] » .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

البحــث الثالــث

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع النبوّة والشريعة : الإنسان

تحدّث الإمام ـ أطال الله عمره ـ مراراً هذا الأسبوع عن ضرورة تهذيب الشباب والطلبة الجامعيين ، ففي عدم التهذيب مضرّة ومفسدة ، والمجتمع لا نفع له إلاّ بالطلبة وشباب الجامعات ، وإذا فسد الشخص العادي فإفساده قليل ، غير أنّ الطبيب والمهندس أو المجتهد إن لم يتمتّعوا بالتهذيب ، وغادروا مدارسهم وجامعاتهم ، كانوا ـ علاوة على فساد أنفسهم ـ مفسدين ؛ فكل صدمة تلقّتها الأمة إنّما كانت على أيدي أولئك الذين يرتادون المدارس والجامعات ؛ أمّا أفراد الأمّة الذين لم يطووا هذه المراحل ، فهم إن لم يكونوا مهذبين كانوا فاسدين ، غير أنّ فسادهم لا يرقى إلى مرتبة هاتين المجموعتين .

أساس دين وشريعة الأنبياء كافّة ، إنّما موضوعه الإنسان ، وموضوع القرآن إنّما هو تزكية وتهذيب الإنسان ، لكي يعرف آفات نفسه ، فيدفعها ، ويشرع في إصلاحها .

التزكية من الخصال الحيوانية : معرفة النفس

التهـذيب يعني التزكيـة والتنقيـة ، فمّم تكـون الـتزكيـة ؟ تكـون التزكية من الخصال والعادات الحيـوانية ، فـإذا ما تمّت ، عـرف الإنسان نفسـه ، وفهم أنّ حقيقته هي الـروح ، وأنّ الروح تخصّ عـالماً آخـر ، وأنّـه سينتقل إلى عـالم آخـر ، فيقـوى لـديـه الإحسـاس بمسؤوليتـه عن نفسه ، ويراعي فيها التقوى والورع ، ويغدو مفيداً متعهّداً مسؤولاً .

وطـالما بقيت الخصـال الحيوانيـة لدى ابن آدم ، فهـو بالمقـابل لن يعرف من نفسه سـوى الحيوانيـة ، ويكون بـالتالي حيـواناً في الحقيقـة ؛ فـالحـرص ، والبخـل ، والحقـد ، والنفـاق ، والغضب ، وحبّ العلوّ و . . . كلّهـا خصال حيـوانيّة ، وكـل إنسان وجـدت فيه هـذه الخصـال فمحال أن يعرف حقيقـة نفسه ، وأنّـه لا يخصّ هذا العـالم ، وأنه حقّاً مخلوق لعالم آخر ، كالمادّيّين الذين ـ بتأثير الخصال الحيوانيّة في أنفسهم ـ هم والحيوانات سواء ، وهم يرون أنّ الموت هو الحدّ النهائي للحياة .

كلّ الآخرين لأجلك . . وأنت لأجل الله

المادّيّ يقول بصراحة : كما أنّ الحيوانات حرّة ، فالإنسان كذلـك يجب أن يكون حرّاً !! فكم تدنّى في معرفة نفسه إذ قرنها بالحيـوان سواء بسواء ! في حين أنّ الحيوانات إنّما خلقت من أجل الإنسان ، بل إن مـا على الأرض وما في السماوات إنّما خلق من أجل الإنسان ، يقول تعالى :

﴿ والأنعامَ خلقها لكم ﴾[1] .

وقال جلّ من قائل :

﴿ ألم تـروا أنّ الله سخّـر لـكـم مـا في الـسـمـوات ومـا في

(١) سورة النحل : آية ٥

الأرض ﴾[1] ؟

فمستوى الإنسان فوق مستوى المادّة والمادّيات والطبيعة ، إذ كلّها خلقت من أجل الإنسان ، كما خُلق الإنسان من أجل الله :

« خلقت الأشياء لأجلك ، وخلقتك لأجلي »[2] .

فمن أجل الوصول إلى الملكوت الأعلى والمقامات العالية التي أعدّت من أجله ، على الإنسان أن يكون من نفسه على بيّنة :

﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين ﴾[3] .

وعلى الإنسان ـ من أجل تهذيب نفسه ـ أن يعرف يقيناً أنّه غير هذا الجسد ، وهو ما لم يفهم أنّ له نفساً ناطقة هي من عالم المجرّدات ، فكيف يكون بمقدوره أن يعرف عيوب نفسه كي يتصدّى ـ من ثَمَّ لعلاجها ؟ .

لذا ، فمن أجل تجرّد النفس ، أعرض لكم بعض الشروح بلسان بسيط :

لماذا لا يمتلك البدن الميّت إحساساً ؟

أن يدرك الإنسان أنّه روح ونفس ناطقة ، هو أن يعرف أنّ هذا اللحم والجلد ، وهذه العظام والعروق ، إنّما هي مَرْكب وآلة للروح ؛ فالعين والأذن واللسان إنّما هي وسائل للروح ترى بها وتسمع وتتكلّم ، وليست أعضاء يصدر عنها عمل ؛ وإلّا ، فلماذا حين يموت الإنسان يفقد جسده الإحساس ؟ .

---

(١) سورة لقمان : آية ٢٠ .

(٢) مضمون حديث قدسيّ .

(٣) سورة السجدة : آية ١٧ .

فلو كـان هذا اللســان اللحمي يمتلك القدرة عـلى النـطق ، فـإنّ لسان الحمار والجمل ، والذي يفوق لسان الإنســان أضعافـاً ، ينبغي أن تكون قدرتـه على النـطق أكبر ! إذاً ، فهـذا اللسان اللحمي ليس شيئـاً قادراً على النطق والبيان ، بل هو مجرّد وسيلة .

أو الباصرة . . فهي ليست سوى عين دهنيّة ، وليست شيئاً قادراً عـلى التشخيص ، أو الأذن . . فهي ليست سوى مـادّة ، وليست شيئـاً قـادراً على السمـع ، بل النفس هي التي تقـول : رأيت وسمعت وذقت وشممت ، أما هذا اللسان والعين والأذن والأنف ، فهي مجرّد وسائل .

الإحاطة العلمية دليل على تجرّد النفس

على ابن آدم أن يدرك ويكتشف هذه الحقيقة ، وهي أنّ الـ « أنا » تعني مـا يحيط بالبـدن ، وليس البـدن نفسـه ، ذلـك أنّ المـادة لا تمتلك علمـاً ، كما لا يمتلك أي جـزء من أجزاء المـادة إحـاطـة أو اطّـلاعـاً ، فالورقة على الشجرة لا تعلم من أمر الورقة الأخرى ، رفيقتها ، شيئاً ؛ والإصبع في اليد لا تعرف عن بقية الأصابع شيئاً .

والخـلاصة : فكـل جزء مـاديّ لا يمتلك إحاطـة بسائـر الأجـزاء الأخـرى ، ذلك أنّ الأجـزاء جميعها هي في عَـرَض بعضهـا ، وهي من هـذه النـاحيــة سـواء ، لكنّ الـ « أنــا » عنـدي ـ من رأسي إلى أخمص قدمي ـ هي على معرفة واطّـلاع ، فإذا مـا وخزت إبـرة كفّي عرفتْ بهـا قـدمي فوراً ، وعـرفت الـ « أنا » من أكـون ؛ ذلك أنّـه إذا مسّ أصغر شيء بدني أصبحت على معرفة به ، سواء نـام هذا الجسـد أو استيقظ ، فإذا أصيب جزء منـه بجرح سـارعتْ إلى علاجـه ؛ فهي تديـر البدن ، والـ « أنا » إذاً ، هي غير هذا البدن .

قابليّة الإحاطة بجميع الموادّ

الإنسان موجود أودع الخالق فيه قابليّة واستعداداً للإحاطة بكل شيء ماديّ ، حتى بالعلويّات ، فهو من حركة القمر مثلاً يعرف اليوم والساعة والدقيقة والثانية ، ويعرف في أي نظام شمسيّ يستوي ، ويطلق الصاروخ ليصل في ثلاثة أيام إلى القمر ، ويعلم الكثير عن الكواكب كالزهرة وغيرها ، ويعرف أحوال الكواكب السماويّة ، وخواصّ الموجودات الأرضيّة ، ويفهم البرّ والبحر ، وهذا كلّه شاهد على تجرّد الروح .

فالتراب لا يمتلك اطّلاعاً على شيء ، أي : يستحيل كلّيّاً على المادّة أن تتّصف بالإحاطة ، فهي لا تمتلك إحاطة علميّة ، وابن آدم إذاً ، شيء فوق المادة ، حتّى يكون بمقدوره الإحاطة بكلّ ماديّ من العرش إلى الفرش ؛ فالـ « أنا » تعني أنّ ذات ابن آدم هي غير هذا البدن ، فالبدن يتلاشى بالموت وليس الذات ، أي نفس ابن آدم ، أو الروح بتعبير آخر ، فالروح لا تموت ، فقد : « خلقتم للبقاء لا للفناء » .

الموت هو حدّ اتّصال الروح بالبدن ، وليس حدّاً لحياة الروح ؛ والموت بالنسبة للإنسان هو بمثابة نزول المسافر من المركب ، فالمسافر إذا بلغ مقصده غادر مركبه ، وبتعبير الإمام (ع) : يستبدل بلباسه لباساً غيره ، فالبموت يستبدل بلباسه الماديّ الكثيف لباساً آخر لطيفاً غير ماديّ ، هو « البدن المثالي » أو « البدن البرزخي » ؛ أو هو كطائر في قفص ، فُتح له باب القفص ، وأُطلق منه ؛ نعم ، فقد شبّه الإمام (ع) الروح بطائر يتحرر من قفص الجسد ، وينطلق ليلتحق بعالم الأرواح الواسع .

لقد نسي نفسـه

لقد خنق الماديّون أنفسهم ، وليعلم كلّ من أصغى إلى مغالطاتهم أنّه خنق نفسه ، فمن يتصوّر أنّ نفسه حيوانيّة ، فلم يعـرف المسؤولية ، وراح يلوّث نفسه بكل شهوة ورغبة ، إنّما هو حيـوان في الواقـع ، وهذا كلّه نتيجة لأنّه نسي الله ، فنسي بالتالي نفسه :

﴿ نسُوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾[1] .

فعليه أن يعود إلى نفسه ليكتشفها ويتعـرّف عليها ، فـما لم يتخلص من الخصـال الحيوانيـة ، ويتنكّب عن طريق الحيـوانـات ، فلن يصبـح إنساناً ، ولن يكتشف نفسه ، وينتهي أخيراً إلى حيـوان في عمله ، وهو إذ يفكّـر أن الحيـاة مجـرّد رونق وبـريق ، ويـروح يسعى وراء الجـاه والزعامة ، ويسري إلى نفسه الغرور والصلف ، ويتوهم في نفسه القدرة فيستبدّ ، ويجري وراء ميول نفسه ، فلن يكتشف إذ ذاك نفسه .

وليس كـونه حيـوانـاً أنّـه يتّخـذ قـالب حيـوان ويتنـاسـخ ، لا ، فالتناسخ كفر ؛ وذلـك إذ يقال : إنّ روح الشريـر تستقرّ في بـدنٍ شرّير بعد الموت ، لا ، فـالأمر ليس كـذلك ، بـل إنّ ذات ابن آدم الحريص والبخيـل تتخذ صـورة حيـوان ، لا أنّها تـدخـل بـدن حيـوان ، أي إنّ صورته تتّخذ أقبح الأشكال ، فالقرآن المجيد يقول :

﴿ يُعرف المجرمون بسيماهم ، فيُؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾[2] .

وردني في الأسبوع الماضي أسئلة متعددة ، منها :

ما هي السنّ التي نكون فيها عند بعثنا يوم القيامة ؟

---

(١) سورة الحشر : آية ١٩ .

(٢) سورة الرحمن : آية ٤١ .

وهـل نحشر عـلى أشكـالنـا التي نحن عليهـا الآن ، أو سنحشر بأشكال تختلف عنها ؟ .

وثالث الأسئلة : هل من العدالة أن ينال بدن هرمٌ ضعيف عقوبة على ذنوب ارتكبت في سنّ الشباب ؟! .

وإليكم الجواب عن السؤال الأول :

المؤمنون يدخلون الجنّة شباباً

مع أنّ أصل القيامة ثابت عن طريق دلالة العقل ، غير أنّ كيفيّته وخصائصه خافية على الجميع ، فليس أحد منّا على اطّلاع عنـه ، سوى ما وصل عن طـريق الوحي ، ومـا بلغنا من روايـات أهل البيت (ع) ، فقد ورد في هذا الصدد أنّ أهل الجنة يحشرون شباباً ، فرجـالهم في سنّ الثانية والثـلاثين ، ونسـاؤهم في سنّ السادسـة عشرة ، ويلازمـون تلك السنّ على الدوام ، فليس في الجنّة شيخوخة إذاً ، فهي عالم آخر ، وهو لا يُقاس بهذا العالم .

يُفهم ضمنـاً أنّ سنّ الثانيـة والثلاثـين ، وسنّ السادسـة عشرة ، تشـيران إلى كمال البهجـة والسرور ، وكـمال الشبـاب والقـوة ، حيث لا سبيل إلى الضعف والفتور في تلك السنّ .

أمّـا الجواب عن السؤال الثـاني ، وهو عن الشكـل الذي سنحشر عليه ، فهو كذلك ما نوضّحه عن طريق الوحي وروايات الأئمة (ع) :

على صورٍ كَسِيَرِكُم تُحشرون

ورد في (تفسير القمّي) ضمن تفسير الآية الشريفة : ﴿ **يوم يُنفخ في الصور فتأتون أفواجاً** ﴾[1] ، أنّ معاذ بن جبل سأل رسول الله (ص) عن هذه الآية فقال :

---

(١) سورة النبأ : آية ١٨ .

« تحشر عشرة أصناف من أمّتي أشتاتاً ، قد ميّزهم الله تعالى من المسلمين ، وبدّل صورهم ، فبعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكّسون ، . . . وبعضهم عمي يتردّدون ، وبعضهم بكم لا يعقلون ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم يسيل القيح من أفواههم لعاباً »[1] .

كما أنّ البعض يحشرون ـ كما تقول الرواية ـ على صُورٍ هي أشبه بصورة البدر في ليلته الرابعة عشرة ، ينشر نوره في كل مكان ، فهم كالملائك يتحركون فوق أهل المحشر .

كما تقول عن نساء الجنّة :

إنّ جمال نساء الجنة بالنسبة إلى جمال الحور العين أشبه بجمال الحور بالنسبة إلى النساء الأخريات .

والخلاصة : فكل شخص يحشر حسب سريرته ، وكيف كان باطنه ؛ فإذا ما كان يتّصف بخصال الملائكة ، فسيفوز يوم القيامة بجمال يفضل جمال الملائكة ؛ أمّا إن كان يتّصف بخصال الوحوش كالغضب والتهافت على الشهوات ، فسيكون مصداقاً للحديث المشهور الذي يقول :

« يُحشر الناس على صور تحسن عندها القردة والخنازير » .

فهو يتمنّى ـ إذ يشاهد وحشة منظره ـ أن يعجّل بإرساله إلى جهنّم حتى لا يراه الناس بهذا الشكل ، فكم هو مؤلم أن تكون جهنم ـ بالنسبة إليه ـ منجاةً له ممّا هو فيه ! .

أجل ، فمن اتّصف بصفات الوحوش ، سيكون كذلك ، كلباً

---

(١) البحار ج ٧ ص ٨٩ ، كما ورد شرح مفصل للحديث في كتاب (المعاد) للمؤلف ، من منشورات الدار الإسلامية .

يعضّ بأنيابه ؛ ذلك أنّه كان ـ بلسانه وقلمه ـ يمزّق ويلسع ، ويهتك شرف الآخرين وكرامتهم ، ويملأ قلوبهم بالألم ؛ فلا تزكية لديه .

والخلاصة : ففي يوم القيامة سيكون شكل كلّ إنسان طبقاً لباطنه وخصاله ، ولما كانت عليه سريرته ، فلو كان يستبطن إنساناً فسيكون في أحسن صورة ، أمّا إن استبطن حيواناً ، فسيحشر في أسوأ صورة .

وأمّا الجواب عن السؤال الثالث ، وهو عمّا إذا كان من العدالة أن يعاقب البدن الهرم الضعيف على ذنوب ارتكبت في سنّ الشباب ، وهل سيتحمّل ذلك ؟ :

الروح هي التي ستكون في راحة أو في عذاب

لئن كنتم قد استوعبتم ما سبق وعرضته بدقّة ، فقد اتّضحت لكم الإجابة عن هذا السؤال ، فاللحم والجلد هما مجرّد آلة لفعل النفس ، فإذا ارتكبت الـ « أنا » ذنباً فالـ « أنا » هي التي ستعذّب ، فالروح والذات هي من ارتكبت الذنب ، وكان البدن مجرّد وسيلة ، لذا فلا فرق في الـ « أنا » بين الشباب والشيخوخة ، حتى لو بلغت مئة سنة ؛ ففي العشرين من العمر الـ « أنا » هي الـ « أنا » ، ومعصية سنّ العشرين أو الخمسين أو السبعين هي معصية الـ « أنا » .

والتكليف الإلهي لم يكن للحم والجلد ، إنّما كان تكليفاً لذات ابن آدم ، الذات هي التي أرادت ، وبإرادتها تحرّكت ، إنّما بواسطة هذا البدن .

عقاب الآخرة غير عقوبة الدنيا

من المعارف العائدة للمعاد أنّ الشخص يعلم أنّ عقاب عالم الآخرة يختلف عن العقاب في الدنيا ، كأن يؤتى بشخص ، فيرمى في

السجن ، مثلاً ، ويعذّب بقلع أظفاره ، كما كانوا يفعلون على عهد الطاغوت ؛ فالوضع هناك يختلف ، ولا تصحّ مقارنته بالعقاب الدنيوي ، ولن نذكر موضوع تجسّم الأعمال ، وكذلك النار التي يكون الشخص نفسه لها وقوداً ولهباً :

﴿ فاتّقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾[1] .

والخلاصة : فما نريد تصورّه عن جهنّم وعذابها لن يكون بمقدورنا ، فهو عنّا في خفاء ، وما ينبغي معرفته هو أنّه ليس كما الأمر هنا ، وأنّ كيفيّته وخصائصه ليست كذلك من ضروريات الدين التي يلزم معرفتها والاعتقاد بها .

وخلاصة الإجابة هي أنّ العقوبة تكون للروح ، أمّا البدن فيتحلّل بالتدريج ، البدن الذي يجدد خلاياه كلّ أربعين يوماً ، ويستبدل بما تحلّل منها غيرها ، البدن الذي هو في هذه السنة غيره في السنة الماضية ، هذا البدن لا ارتباط له بالعقوبة ، علاوة على أنّه سيفنى ولن يبقى .

التكامل في الآخرة ، وكذلك الاطّلاع على أمور الدنيا

لقد أثير سؤال آخر ، وهو : هل يوجد في هذه الدنيا تكامل ، أم لا ؟ وهل من يموت أو يُستشهد يكون على اطّلاع على أعمال أهل الدنيا ، أم لا ؟ .

والجواب عن القسم الأول :

مهما كان الشخص منّا في هذه الدنيا ، فهناك قانون إلهي يحكم الجميع ، وهو أنّه إذا حان الأجل أغلقت حقيبة الأعمال ؛ عبارة تروى عن رسول الله (ص) :

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٤ .

« الدنيا مزرعة الآخرة » .

فما دام ابن آدم فوق التراب فالزمان ممتدّ أمامه ، فإذا ما حلّ الأجل فلا سعي ولا عمل ، وكل ما عمله هنا فسيجني ثماره هناك ؛ وإذا كان المراد بالتكامل أنّ الإنسان إذا قصّر في سعيه فسيعطى شيئاً فيما بعد ، فهذا غير صحيح ؛ أمّا باب التفضل والتكرّم والشفاعة فهو في موضعه ، إنّما الحديث يدور حول إذا ما كان لدى الإنسان توقّعٌ للجزاء دون عمل ، فهو لم يصلّ ، ويتوقّع أن يعطى ثواب الصلاة ؛ ولم يتصدّق ، وينتظر ثواب الصدقة ؛ ولم يحسن ، ويطالب بجزاء الإحسان ، فهذا كلّه غير صحيح ، ذلك أنّ ما عملتَه فهو ما ينبغي أن تسأل الله جزاءه .

إن كنت رحيماً فتوقَّع الرحمة

الذين يقولون : ارحمنا يا ربّ ، فإنّ موضع قولهم هو حين يُقال لهم :

وهل كنتم أنفسكم ترحمون ؟! هل الرحمة حسنة أم سيّئة ؟ إن كانت حسنة ، فلماذا لم ترحموا ؟ ! .

فكل ما أودعه الإنسان في نفسه من صفات الكمال ، كنموذج ، هو ما ينبغي أن يتوقّعه ، فالله سيعامله على هذا الأساس ، بالمثل .

الذين يقولون : اعف عنّا يا ربّ ، سيقال لهم :

وأنتم ، كم مرّة عفوتم طول عمركم ؟! .

ما أكثر الذين يقال لهم حين يكونون على خلاف مع آخرين : اعفوا واصفحوا ، لكنهم لا يهتمّون لما يقال لهم ، وهم مع ذلك يتوقّعون العفو من الله ، ومن الخلق ! .

والله تعالى يقول :

﴿ وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبّون أن يغفر الله لكم ﴾[1] ؟ .

إن رأيت أحدهم يعاني من فقره ، فلا تشتدّ عليه في طلب حقّك .

أقوال السجاد (ع) وسلوكه مع غلمانه

ورد في كتاب (الإقبال) للسيد ابن طاوس أنّه كان إذا ما حلّ عيد الفطر جمع الإمام السجاد (ع) غلمانه وجواريه ، وراح يعرض عليهم ما بدر منهم من مخالفات فعلها كل منهم طوال عام ، ويذكّرهم بها ، ثم يقول ما مضمونه :

اليوم يوم عيد ، وأنا قد عفوت عنكم جميعاً ، وأعتقتكم ، فقولوا : يا ربّ ، هذا علي بن الحسين قد عفا عنّا ، فاعف يا ربّ عن أخطائه ؛ وقد أعتقنا ؛ فأعتقه يا ربّ من النار .

الحقيقة أين ؟ وأوهامنا وخيالاتنا وادّعاءاتنا الواهية أين ؟! فما تطلبه من الله يجب أن يكون منه مثال في نفسك ؛ فهو عزّ وجلّ أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة ؛ فهل أنت في موضع الرحمة ، أم في موضع النقمة ؟ فإن كنت في موضع النقمة ، فكيف تتوقع العفو والرحمة ؟! .

فإن كان المراد بالتكامل أن يثاب الإنسان على ما لم يعمل ، فهو ليس كذلك ، وتوقعه كذلك في غير محلّه .

أمّا إن كان المراد بالتكامل ابن آدم من حيث البهجة والسرور والشهود ، فنعم ، هو كذلك ؛ فمن كانت له علاقة بالنبي الأكرم (ص) ، فليتوقّع التكامل بعد الموت ؛ أي إنّه حين يرى جمال

---

(١) سورة النور : آية ٢٢ .

محمد (ص) وعلي (ع) ساعة موته ، يعرف بهجة الشهود ويتكامل في إدراكه ، كما يتكامل في مباهجه ومسرّاته بالطبع .

الجمهورية الإسلامية ومقدّمة الظهور

ورد سؤال آخر ، وهو ولو أنّه ليس في صدد بحثنا ، غير أنّ الإجابة عنه تنطوي في نظري على المنفعة ، لذا فسأتحدّث عنه .

في وقت ظهور إمام الزمان (عج) تكون الأرض قد ملئت ظلماً وجوراً ، فيملأها عليه السلام قسطاً وعدلاً ؛ فمع قولنا بأنّ الجمهورية الإسلامية مقدّمة لظهور إمام الزمان (عج) ، أليس في ذلك تناقض ؟ .

والجواب هو أنّ هذه مغالطة فيها إلغاء ؛ وقد سمعت من قبل أفراداً يقولون : إنّ ظهور إمام الزمان (عج) يأتي طبقاً للروايات فـ « يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما (بعدما) ملئت ظلماً وجوراً » ؛ فإذا قامت الجمهورية الإسلامية على هذا الشكل من اللياقة والجدارة ، تبسط العدالة والقسط ، أفلا تؤخر بهذا ظهور الإمام (عج) ؟ فعلينا إذاً أن نفعل ما من شأنه استفحال الخراب كي نعجّل في ظهور إمام الزمان (ع) !! .

لا تسلب العباد حريّة الاختيار

لقد أخطأوا في فهم الرواية ، وفشلوا في التطبيق ، فالأنبياء والأئمة لا يتحرّكون أبداً خلافاً لمجاري الخلقة ، فلا جبر في العمل ، ولم يؤمر نبي ولا إمام باستعمال القوة والجبر في الأمور التكوينيّة ؛ أي أن يأتي النبي ، ويحظر على الناس حريّة اختيارهم ، ويطلب منهم أن يؤمنوا ويصلّوا دون اختيار ، وهذا هو الخطأ ، ذلك أنّ الإيمان والعبادة هكذا وبالقوة والإكراه لا قيمة لهما .

يقول تعالى في كتابه المجيد :

﴿ **ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلُّهم جميعاً ، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾[1] ؟ ! .

وليس البناء على أن يكون الأمر كذلك ، فالدوابّ على الأربع هي في حال ركوع دائم ، كما أنّ الأفعى والنملة هما في حالة سجود دائم ، أمّا الإنسان فالمطلوب منه أن ينحني لعظمة الله باختياره ، وأن يسجد له ، فالظالم ينبغي أن يمتلك اختياره ، حتى إذا ما بدر منه ظلم عوقب على ما بدر منه ، وقيل له : لقد قدرت على أن لا تظلم ، ومع ذلك فقد ظلمت ؛ لئن سُلب الإنسان اختياره ، فكيف ستظهر سعادته وشقاؤه ، فالكمالات تظهر لدى الإنسان بفضل حريّة الاختيار .

فإذا كان إمام الزمان (عج) سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، فهذا لا يعني أنّه سيسلب الناس اختيارهم ، ثم يجبرهم على أن يكونوا مؤمنين عدولاً بالقوة ، أو أنّه سيقرّ العدل بالمدفع والبندقية مثلاً ، فهذه الأسلحة إنّما جعلت لقهر الدول والتسلّط على الأفراد ، أمّا إصلاح المجتمع فلا يكون باستعمال السلاح .

لقد رأينا جميعاً حكومة السوء وقد سقطت ، فهل صلح حال الأمّة ؟ وهل قام العدل والقسط ؟ إمام الزمان (عج) سيأتي بالقوّة ، وسيمحو القوى الأخرى كافّة ، غير أنّه بعمله هذا لن يبسط العدل .

بالرشد العقلي وبالتدريج يتمّ بسط العدل

بسط العدل لا يتمّ دفعة واحدة ، بل هو يحصل بالتدريج ، وتكون بداية ذلك حين يظهر لدى الإنسان الاستعداد لتقبّل العدل ، ويعقبه تحرّك الأمم .

فعن أبي جعفر (ع) قال :

---

(١) سورة يونس : آية ٩٩ .

« إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم ، وكملت به أحلامهم »[1] .

ولا شكّ أنّ الثورة الإسلاميّة مقدّمة لظهور المهدي (عج) ، ولكن إيّاكم أن يجنح بكم الخيال فتتصوروا أنّ الجميع يكونون عند ظهوره من الظالمين ، وبالقوة يغدون جميعاً عدولاً ، ودفعة واحدة ، بل هو الرشد العقلي يظهر بينهم فيدركون أنّ عليهم ألاّ يتخلّوا عن طريق الأنبياء .

لقد رأيتم كيف أدرك الجميع ، وفي ظرف مدّة وجيزة أنّ النظام السابق نظام باطل ، يروّج للشهوات وأسباب اللهو واللعب والقمار والسلب والنهب بين الأمة ، فتوحّدت كلمتهم ، وساروا قدماً خلف قائد واحد ، والأمل أن يدفعوا عن أنفسهم مظاهر التفرقة التي زرعتها الشياطين بينهم ، فتبلغ الأمة يوماً فيوماً رشدها العقلي .

لا ينبغي تكرار تجربة المشروطة

لو أنّ الأمّة اليوم كانت مثلها قبل خمسين سنة ، فلن يطول الأمر بها حتى يعود الطاغوت بعد فترة وجيزة ، كما عاد إبّان بداية المشروطة[2]؛ نعم، فالأمّة إذ ذاك أسقطت الديكتاتورية ، ولكن نظراً لأنّها لم تكن تمتلك الرشد ووضوح الرؤية فقد تمكّنت الديكتاتورية من العودة على نحو أسوأ ، رجعت مع حكومة تلك الأيام ، وعملت ما عملت ، وجرى ما جرى .

أمّا الآن فإن جماعات من المنحرفين يتجاسرون على رجال الدين ويرمونهم بالنقصان ، لكنّ افتراءاتهم ـ كما ترون ـ لا تجد لها تأثيراً سوى

---

(١) أصول الكافي ، كتاب العقل ح ٢١ .

(٢) مشكلة دستورية ، تحرّك الشعب على أثرها ، وكان الدافع إلى تحرّكه هو الخلاف بين أن يكون الحكم مطلقاً مستبداً ، أو أن يكون مشروطاً ومقيداً بآراء الجمهور .

عنـد ثلة قليلة جاهلة من أفـراد الأمّة ، وبكلمـة واحدة من إمـام الأمـة يظهر عجزهم ، وببيان واحد يقدّمه الإمام يتّضح كيد الشيـاطين ؛ فهـو يقـول : إنّ كلّ شخص يكـون أكثر نفعـاً لـلأمّـة يكـون أكـثر تعـرّضـاً لحملات التجريح ؛ وتجعله الأيادي الأمريكية مـورداً للشتم والإهانـة ؛ كونه يعارض أهدافهـا ويحول دون سلبهـا ونهبها لـلأمّة ، ويفضـح مكر المستكبرين وخداعهم على الملأ .

قوى الاستكبار تخشى طلائع العدالة

فمعنى ظهـور إمام الـزمان (عـج) وبسطه للعـدل ، ليس إذاً أن يكون الظلم شاملاً كـل مكان في ليلة مثـلاً ، فإذا أسفـر الصباح وكـان الـظهور ، مـلأ العدل كـل مكان ، لا ، بـل معنـاه أنّ النـاس أنفسهم يتقبّلون العدالة باختيارهم .

نعم ، فالجبابرة والطواغيت الذين استضعفوا الشعـوب سيقتلعون كـما تقتلع الأشواك ، ولكن ، مـا لم يكن النـاس عـلى استعـداد لقبـول العدل عند ظهور إمام الزمان (ع) ، ولو استقرّ أكـثر الأفراد عـدالة عـلى رأس الحكومة ، ومـا لم يبلغ الناس أنفسهم الـرشد العقـلي ، فلن يمكن بسط العدل .

فالعدل القائم بين الناس في البيت والشارع والسـوق ، بين المـرأة والابن والـزوج والأب ، والرفيق والغـريب ، وإجمـالاً ، فـالعـدل بـين الأفراد يحين وقت قيـامه عنـدما يصبـح كل فـرد عادلاً ، وهـذا المعنى لا يتيسّر ولا يقوم إلاّ على الرشد العقلي لأفراد الأمّة فرداً فرداً .

نشكر الله عزّ وجـلّ على أنّ طـلائع الـرشد العقـلي قد بـدأت في الظهور في بلادنا ، كما أنّ الأرضية المناسبة لظهوره في البـلاد الإسلاميـة المجاورة أضحت حاضرة ، فالرشد الذي بدأ بالظهور لدى أمة الإسـلام في إيران يوجب خوف قوى الاستكبار، وهم يخشون أن يسري إلى بـلاد

أخرى ، الأمر الذي يكفّ أيديهم عن ابتلاع ثروات العالم .

كما أنّ الأرضية لظهور الرشد بين أفراد الأمّة الأمريكية نفسها قد بدأت في الظهور ، فقد أدركوا أنّهم يسيرون في طريق معوجّة ، كما أدركوا أشكال الانحراف والفساد المناقضة للعدل ، والمنتشرة بين الدول والشعوب ، وأصبحوا على استعداد إلى حدّ ما لقبول العدل ، وستظهر الأرضية لظهور الإمام المهدي (ع) شيئاً فشيئاً في أنحاء الكون كافّة ، إن شاء الله .



[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

البحــث الرابــع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فلينظر الإنسان ممّ خُلق * خُلق من ماءٍ دافق * يخرج من بين الصلب والترائب ﴾

الحكمة الإلهية تتجلّى في أجزاء الجسد كافّة

تعرّضنا في الأسبوع المنصرم إلى أمر الله تعالى إلى عبده أن يتفكّر ويتأمّل بدقّة في مبدأ تكوينه ، وفي هذا المعنى يظهر كيف أنّ قطرة ماء واحدة ينفر الجميع منها قد تحوّلت إلى هذا الجهاز العظيم الذي ينطوي عليه جسم الإنسان ، والذي يشتمل على مصانع متعددة ، وعظام أصليّة وفرعيّة ، ويقال إن كفّ اليد وحدها تشتمل على أربع وثلاثين قطعة من العظم ، والتي لو لم تكن موجودة لأوقعت الإنسان في مشاكل جمّة ، ولكل إصبع ثلاث سُلامَيات تساعد في ملء قبضة اليد ، أو رفع شيء ، أو قبض الكف وبسطها .

فمن دقّق في هذا البدن تبيّن له أنّه يختزن الحكمة من أوّله إلى آخره ، فلم يُخلق عضو منه دون حكمة وفائدة ، وليس فيه عرق واحد أو قطعة عظم واحدة دون نفع ، فإن جرى في خيال أحدهم أنّ عضواً واحداً وُجد فيه دون نفع فليخدش رأسه وتفكيره علّه يفهم ! .

الزائدة الدودية وخطأ السلف

كان الأطباء قبل ثلاثين أو أربعين سنة يقولون : إنّ هناك عضواً زائداً في الجسم أسموه المصران الأعور ، وهو قطعة صغيرة من الأمعاء لا يتجاوز طولها الإصبع ، وهي عوراء ، أي إنّ الغذاء إذا وصلها لم يجد له طريقاً فيعود من حيث أتى ، أمّا إذا لم يعد ، وتوضّع هناك ، تعفن وتسبّب في نشوء المرض ؛ لذا كانوا يشيرون باستئصاله حفظاً للسلامة .

ومع تقدّم علم الطبّ اتّضح الخطأ الذي وقع فيه السلف من الأطبّاء ، واتّضح أنّ هذه القطعة الصغيرة من الأمعاء غير زائدة ، وأنّها بمثابة جرس إنذار ينبّه إلى الخطر ، فإذا ما أُصيبت الأمعاء بالتعفّن ، انتشر منها الإحساس بالألم ، ودفعت بصاحبها إلى الطبيب ، وإلّا ، لانتشر المرض في الأمعاء ، وفات وقت علاجها .

لماذا يُعدّ الإحساس بالألم رحمة ؟

الألم بحدّ ذاته نعمة أودعها الله تعالى جسد الإنسان ، فالإحساس بالألم يدفع إلى العلاج ، فلو فسد عضو من الأعضاء ولم يحسّ صاحبه بالألم ، لم يكن ليسارع إلى إحضار الدواء ، وتكون النتيجة أنّ الفساد يستشري وينتشر .

وهذا (السرطان) الذي يصفونه بالخطر ، فعلّة خطره أنّ المصاب به لا يحسّ بألم منه في البداية ، فلا يجري وراء علاجه ، وإذا ما عرف وفهم ، تكن فرصة علاجه قد ضاعت ، وأودى بصاحبه إلى الهلاك .

غرضي من هذا الكلام هو أنّ على ابن آدم أن يفكّر بدقّة زائدة في خلق نفسه ، كما يقول الشيخ الرئيس[1] ، أو كما ينسبه البعض إلى الإمام الرضا (ع) :

---

(١) لا يخفى أنّ المقصود هو الشيخ ابن سينا .

« من لم يعرف (علم) الهيئة والتشريح فهو عنينٌ في معرفة الله » .

أي إنّ معرفته لله تكون ضعيفة وناقصة ، ما لم يحط علماً بالحكمة المودعة في البدن ، وما لم يحط بقدر العلم والقدرة غير المحدودة لخالقه ، ذلك أنّه لا يمكن لمن أنشأ بنياناً بهذه العظمة أن يكون غير عالم ، أن يكون إنشاؤه صدفة واتّفاقاً ، أو انتقاء من الطبيعة كما يقول المادّيّون !! .

القول بانتقاء الطبيعة تناقض واضح

ماذا يعني الانتقاء ؟ إنّه يعني أنّ شخصاً ذا فهم وشعور يقوم باختيار الأفضل ، وينبغي لمن يقوم بالانتقاء أن يتحلّى بالشعور والعلم والإدراك ، كي يكون بمقدوره انتقاء الأفضل ؛ فإذا كانت الطبيعة غير ذات شعور ، فما معنى الانتقاء إذاً ؟ والنطفة . . . هل تمتلك شعوراً كي تنسّق البدن بشكله وتشكيلاته ، وتضع كل شيء في مكانه المناسب ؟! .

أمعن النظر في هذه الأهداب المحيطة بالعينين ، هذه الشعيرات الدقيقة التي أخذت بأطراف الجفنين ، تر القسم العلويّ منها يتّجه بقدر نحو الأعلى ، بينما القسم السفلي منها يميل نحو الأسفل ، فإذا ما انطبق القسمان تزاوجا حتى أطرافهما ، واحتضن تزاوجهما حدقة العين .

فلو لم يكن هذا الانحناء والتمايل ، كأن يكونا بشكل مستقيم يحاذي فيه أحدهما الآخر مثلاً ، لما انطبق طرفاهما (بالنسبة لشكل العين) ، ولما شكّلا سدّاً يحول دون تسرب الغبار أو التراب من خلالهما ، ودون وصوله إلى العين ، وتبقى العين هكذا غير مصونة .

وهكذا ترون أنّ الخالق لم يغفل سبحانه عن شكل شعيرة وطرز

توضيعها مراعاة منه عزّ وجل لراحة الإنسان وسلامة عينه ، هذا العضو المهم الفعّال ! .

ملايين الخلايا لكلّ عضو

لقد جرت وتجري تحقيقات وأبحاث واسعة في علم التشريح فيما سبق ، وفي الحاضر ، وستجري في المستقبل كذلك ، كما جرى ويجري تدوين كتب كثيرة في هذا العلم ، ولا تفتأ هذه التحقيقات تقول بأن الحِكَم الوفيرة التي أودعت في أعضاء هذا البدن لا تزال خافية علينا ، ويمكن للمستقبل أن يكشفها لنا ؛ فقد أحطنا علماً بكثير من الأمور وفهمناها ، في حين كان الآخرون لم يسمعوا بها بعد .

فقوة السمع ، ووسيلتها الأذن ، تمتلك ثلاثة ملايين من الذرّات (الخلايا) التي إن فقد بعضها عجزت الأذن عن السمع ؛ وقد حدث أن قريباً لنا فقد قوّة سمعه ، وتبيّن بعد المعاينة الطبيّة الدقيقة أنّ الملايين الثلاثة من الخلايا في أذنه تنقص ما يقرب من ستة عشر ألف خلية ، الأمر الذي أفقده قوّة سمعه .

وهذا واقعاً يدعو للحيرة ، « فلينظر الإنسان ممّ خُلق » ! فكّر بأصل خلقتك وتبين ماذا فعل الخالق .

الحكيم والعليم من أسماء الله ، إنّها الحكمة المطلقة ، والعلم الكامل يتجلّيان في أفعال الخالق عزّ وجلّ ، فلاحظ القدرة التي لا نهاية لها ، والتي تتجلّى في أعماله جلّت قدرته .

للشيخ الرئيس قول ملفت ، يقول :

« الناس يتعجّبون من جذب المغناطيس مثقالاً من الحديد ، ولم يتعجّبوا من جذب النفس الناطقة الحيوانية هذا الهيكل العظيم » .

هذا الجسد الثقيل الذي يتعاون أشخاص عديدون على حمله بعد

موته ، فما هذه القدرة التي تحرّكه بمجرّد الإرادة ؟ ومن أين أتت هذه القدرة ؟ وكم هي القدرة التي أعطاها الله للنفس ؟! .

الخضوع أمام إحسان الله

علينا أن نسعى وراء هذا الخيط من الفكر ، علينا أن نزيد من مطالعتنا في تشريح الجسم ، تفكّروا وتفكّروا . . ثم قولوا « تبارك الله أحسن الخالقين » .

إذا ما فهم الإنسان هذه الأمور ، بادر العقل إلى القول : عليك إذاً ، أن تخضع أمام هذا الخالق القادر العليم .

قال بعض الأجلّاء ، والحقّ ما قالوا : « الإنسان عبد للإحسان » ؛ فإذا ما أحسن إنسان لإنسان ، أحبّه ، بدافع فطرته ، واستكان له وخضع في سرّه ، فكيف بنا ونحن نرى الخالق الكريم وقد أغرقنا بإحسانه ، ولا شيء حولنا سوى نِعم من قبله ، كيف يكون خضوعنا للحقّ تعالى ؟! .

اعرفوا النِّعم قبل زوالها

قبل بضع سنوات ، اتّسخت أذني ، وفقدت السمع أياماً ، ممّا اضطرّني إلى مراجعة طبيب الأذن ، فقام بغسلها وتنظيفها ، ولم تمض ساعة على غسلها حتى أشعرني أول صوت سمعته بسرور غير عاديّ ، فقلت : يا ربّ ، أيّ نعمة عظيمة أعطيتني ، لكنّي لم أكن التفت إليها !! .

وهنا تكمن تعاسة ابن آدم ، فهو ما لم تسلب منه النعمة ، لا يعرف لها قدرها ، وأرجو ألّا تنتظروا زوال النعم عنكم حتى تعرفوا قدر هذه النعم وقيمتها .

ونعمة اللسان . . إذا فقد القدرة على النطق ، يُعلم إذ ذاك أي نعمة هو ! فكم يتوجّب عليك أن تذكر الله وتقول : « الله أكبر » ! لا تنس الله حتى آخر عمرك ، لا تكن كفوراً ، يصل الأمر بهذا الإنسان إلى أن ينكر الله سبحانه ، ذلك أنّ ذوات الأربع تنتفع من نعم الله ، دون أن تدرك معنى النعمة !! والله عزّ وجلّ يقول :

﴿ والذين كفروا يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم ﴾[1] .

أليس الله الذي آتانا من فضله كلّ هذه النعم ، الظاهر منها والباطن ، الماديّ منها والمعنوي ؛ الله الذي سخّر لنا الأرض والسماء والكواكب ، أليس جديراً بالحمد والشكر ؟ هذا الشكر الذي نبلغ به مقام الكمال ؟! .

يُسمع أحياناً من يقول بأنّ الله لا يحتاج إلى حمدنا وشكرنا ، وهذا صحيح ، إنّما أنت ، ألست محتاجاً إلى نفسك ؟ والله عزّ وجلّ يقول :

﴿ . . لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾[2] .

أي إن عمل المرء يعود عليه ، حسناً كان أم سيّئاً ؛ فإن كنت من الشاكرين ، فقد وقعت على خصلة إنسانيّة ، وتبوأت مقاماً يسمو على الملائكة ، والله تعالى يقبل شكرك ، ويعطيك أجرك ؛ وإن لم تكن ، فالأمر يعود عليك ، والله يعلم أخيراً أين وضعت رأسك .

أسأل الله أن يكون للجميع عوناً ، ويبلغهم المنزلة المقصودة ، والتي هي لقاء الله عزّ وجلّ .

---

(١) سورة محمد : آية ١٢ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

البحث الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

فلينظر الإنسان ممّ خُلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنّه على رجعه لقادر ﴾

الطريق إلى معرفة المبدأ والمعاد

أصلان في العقائد الإسلامية هما : الاعتقاد بالمبدأ والمعاد ؛ فيجب على الإنسان أن يعرف مبدأه وخالقه ، وأن يعرف معاده ومآبه .

إنّ التدبّر في هذه الآيات المتقدمة يعطي البرهان على كلا الأمرين ويوضّحه .

« فلينظر » : على الإنسان أن ينظر ويرى كيف تمّت خلقته ، وذلك كي يعرف خالقه أولاً ، وكي يعرف معاده ومرجعه ثانياً ؛ عليه أن ينظر ويرى كيف تشكّل هذا البنيان العجيب في باطن قطرة ماء واحدة ، هذا البنيان الذي ينطوي على الحكمة والمصلحة من أوّله إلى آخره ، بحيث لم يوضع فيه عرق واحد دون هاتين الحكمة والمصلحة .

إنّ قطعة عظم واحدة زائدة لم توضع فيه ، فالله عزّ وجل أودع في هذا البنيان ما يلزمه ؛ لذا ندرك أنّ قدرة هذا الخالق لا حدّ لها ولا

نهاية ، إذ استطاعت هذه القدرة أن تخلق في قطرة ماء واحـدة في ظلمات ثلاث هذا البنيان المدهش العـظيم ، الذي صرف العلماء آلاف السنـين في بحث تشريحـه وكيفيّة خلقـه ونوع خصـائصه ، ثم اعـترفوا أنّ هنـاك الكثير الكثير ممّا لم يفهموه .

ليس بمقدور المادة الفاقدة للشعور أن تخلق

كذلك عليه أن يلمّ بالعلم اللامحدود للخالق عزّ وجلّ :

﴿ **ألا يعلم من خلق ؟ وهو اللطيف الخبير** ﴾[1] .

ألا يعلم أنّ الذي لم يخلق ذرّة واحدة من ذرّات خلقه دون حكمة ومصلحة ، إن كان عليماً أم لا ؟! .

يقول المادّيّون ـ وهم المنكرون لله وللعالم العلوي ـ : إن كلّ ما هو موجود إنّما هو مظهر لتكامل المادّة ؛ فما تُراهم قائلين في هذه الحِكم التي تلف العالم من أقصاه إلى أقصاه ؟ وهل من صنعها ليس حكيماً ؟! .

أنتم تقـولون : إنّ المـادّة لا شعور لـديها ، حسنـاً ، فكيف يتّفق هذا مع انتقاء الأحسن ؟ هذا هو التناقض بعينـه ، فمن ناحيـة تقولـون بعدم شعور المادّة والطبيعة ، ومن ناحية أخرى تقـولون بـانتقاء الأحسن والأصلح ! الانتقاء فعل اختياري ، وهو دليل على وجـود الشعور لـدى من يقوم بالانتقاء ! .

إنّهم يلفّقون الكلام توخّياً لتسكين خواطرهم ، وإنكارهم للمبـدأ والمعاد ؛ في حين أنّهم لا يعلمون ما يقولون :

﴿ **وما لهم بذلك من علم ، إنْ هم إلّا يظنّون** ﴾[2].

---

(١) سورة الملك : آية ١٤ .

(٢) سورة الجاثية : آية ٢٤ .

أو قولهم بأنّ الإنسان كان في الأصل قرداً ، ثم عملت الطبيعة بالتدريج على تكامله ، فسقط ذيله ، وحوّلته من وضع الانحناء إلى وضع الاستقامة ، ثم تساقط شعره ، و. . . . حسناً ، لئن كان الأمر كذلك فلا ينبغي بقاء قردة في الدنيا ، إذ كيف ينقلب قرد واحد إلى إنسان ، وتبقى بقيّة القرود على حالها ؟! ولئن كان التكامل قانوناً تقوم عليه الطبيعة ، فما الفرق بين هذا القرد وبين سائر القردة ؟ فهو قد تكامل وصار إنساناً ، فهل وُجد قرد واحد في عالم التكامل ، بينما لم يهتد الباقون من القردة إلى التكامل ؟! .

من المعروف أنّهم لا يريدون التسليم بالحقّ ، لا يريدون إدراك الواقع ، لا يريدون إدراك الحقائق ، ذلك أنّهم لا يرضون بأن تطوّق قيود الدين أعناقهم ، لذا فهم ينكرون البديهيّات !! .

فهم الإنسان ليس نتاجاً للمادة

هل لدى ابن آدم شعور أم لا ؟ كلّ إنسان يعرف أنّ لديه شعوراً ، فهل من صَنَعك لا شعور له ؟ وكل إنسان كان من نطفة ، فهل وهبتك المادة الشعور ؟! .

الذات لم توجد عطاءً من وجود هل باستطاعة موجَدٍ منح الوجود ؟
ذلك الغيم الذي لا ماء فيه كيف نُسميه بماءٍ ليس فيه ؟

النطفة والمادّة تعطيان الشعور ؟! من يستطيع أن يدّعي أمراً كهذا ؟! لا مندوحة له عن القول سوى : إنّ من هو عين العلم والحياة ، هو من وهبني الشعور ، فكما أنّ البدن نفسه حادث ، فهو لم يكن موجوداً ، ثم وُجد ، كذلك فالشعور والإدراك حادثان ، وهناك معطٍ وواهبٌ للشعور ؛ فمن أين أتى هذا الفهم وهذا الإدراك ؟ هل

يصحّ أن ننسب العطاء إلى المادّة فنقول بتكامل المادّة وانتقاء الأحسن من قبل الطبيعة ؟ هل يقبل عقلك هذا الكلام ؟ .

إنّ الإدراك الذي يمكّن الإنسان من الإحاطة حتّى بالمجرّات والأفلاك ، وبالكثير من نواحي الوجود ، لهو في ذاته برهان على تجرّد الروح .

الإحاطة العلمية دليل على تجرّد الروح

الجسم أبداً لا يحيط بمثله ، فما هو هذا الآدميّ الذي يستطيع الإحاطة بالعالم كلّه ؟ هل بمقدور هذا البدن أن يكون محيطاً ؟ وما هي القدرة التي تدرك خفايا المواد وخواصّها وكيفيّة حركتها ؟ .

هذا الإدراك إنّما هو أكبر شاهد على تجرّد الروح ، فالورقة على الشجرة لا تدري من أمر الأوراق الأخرى شيئاً ، وهذه الإصبع في البدن لا تدري من أمر الأصابع الأخرى شيئاً ، كما أنّ خلايا البدن لا إحاطة لإحداها بالأخريات ، فيعرف من هنا أنّ الآدميّ فينا هو غير هذا الجسد .

إنّ فينا من القدرة ما يمكننا من الإحاطة بالجسد من رأسه حتى أخمص قدمه ، ومن الإحاطة بأجزاء البدن كافّة ، بل الإحاطة بكل شيء ، إنّما بالقوّة بالطبع ، فهل بمقدور أحد أن ينكر علمه ؟ هذا العلم هو علمٌ ماديّ ، أي هل المادّة هي من أعطتك إيّاه ، أم أعطاك إيّاه ؟ من خلقك ؟ .

فالإدراك خير دليل على أنّ الإنسان غير مادّيّ ، فروح ابن آدم مجرّدة ، ولها طريق إلى الغيب وما وراء الطبيعة ، فيما إذا زال الحجاب والمانع .

وصل ابن آدم موضعاً يلقى به   ربّ الأنام ولا سواه ، فاعتبر

وانـظر مـقـام الآدمـيّـة الـتي   تـرقى بـه نحـو العـلاء إن شكـر

لـدا فعلى الإنسـان أن يخطو ـ من التفـاتـه إلى أصـل خلقتـه ـ إلى معرفة العلم والقدرة اللذين لا يُحدّان لخالقه وخـالق الآخرين ، والـذي من شعاع علمه ، علم الروح بالبدن ، وسائر الأشياء .

فالله قدير إذاً ، وهو على رجعه وخلقه من جديد لقادر .

ليس في البدن في الآخرة ، أثر من آثار المادة

البدن يوم القيامة ، يتفـاوت بالـطبع مـع هذا البـدن الفعلي ، في نواحي كثيرة ، منها أنّ البدن في الجنّـة يكون خـالياً من الفضـلات التي هي من لوازم البدن المادي ، كالبول والغائط والشعر والأظفار وسواها ، ومنها التعب بعد العمل والنشاط الذي يعرو هذا الجسد ، فلا وجود لـه هناك ، كما أنّـه لا مرض هنـاك ، فالجسـد هو الجسـد ، غير أنّ تشكيله وتـركيب أقسامـه يكون بشكـل لا أثر فيـه لهـذا الـتركيب المـاديّ الـذي نعهده ؛ فإذا ما أردنا تصور ذلك فلن يكون بمقدورنا ، ذلك أن تصوّرنا إنّمـا ينطلق من الـواقع المـاديّ ، وهذه الآثـار إنّما هي من لـوازم البـدن المادي ، والتي سِمتها الانفصال عنه ، لذا فلا يمكننا تصوّر غير ذلك .

وقـد أوردوا تشبيهاً ينـطبق عـلى مـا نحن بصـدده ، فنحن أشبـه بجنين في رحم أمّه ، ومهما حاولـوا إفهامـه أن العالم خـارج الرحم عـالم واسع حافل بالثـمار والأطعمة ، والنبـات والحيوان وسـواها ، فـلا يمكنه إدراك ذلك ؛ وكذلك هو حال ابن آدم وهو في رحم عالم الطبيعة بالنسبة إلى العالم العلوي ، فهما قالوا له بأنّ عالم ما بعد الموت عالم واسع حـافل فلن يستطيع أن يدرك ذلك .

كذلك فالقرآن المجيد يقول :

﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين ﴾[1] .

---

(١) سورة السجدة : آية ١٧ .

وهنا يحسن التطرّق إلى الآيات المتعلقة بالمعاد .

المنكرون لا يمتلكون أيّ دليل

« إنّه على رجعه لقادر » : الذين ينكرون المعاد فإنكارهم مجرّد استبعاد محض ، فهم لا يمتلكون دليلاً من أيّ وجه على نفي وقوع المعاد ، وكذلك الأمر معهم بالنسبة للمبدأ تعالى ، فهم لا يتصوّرون كيف يمكن لعظم نخر مسحوق أن يعود حيّاً من جديد ، والمشكل هو انتفاء الدليل لديهم على عدم الوجود .

إنّ أكبر دليل على المعاد هو قوله تعالى : ﴿ **إنّه على رجعه لقادر** ﴾[1] ، فمن أوجد من قطرة نطفة ، ومن قبضة من تراب هذا الهيكل العظيم ، بمقدوره أن يعيد خلقه ، بل هو عليه أهون ، كما يقول القرآن المجيد :

﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده ، وهو أهون عليه** ﴾[2] .

فالرجع أهون من الإيجاد الأول .

وفي سورة (القيامة) وردت نكتة أكثر لطافة ، يقول تعالى :

﴿ **بلى ، قادرون على أن نسوّي بنانه** ﴾[3] .

يقول (الطنطاوي) المفسّر المصري :

« حتّى القرن الأخير ، كان الناس لا يفهمون معنى نكتة لطيفة هي من الإعجاز القرآني ، فلم يكونوا ملتفتين إلى أنّ أطراف الأصابع تغطّيها خطوط خاصّة ، وهي خطوط تتفاوت لدى كلّ إنسان من

---

(١) سورة الطارق : آية ٨ .

(٢) سورة الروم : آية ٢٧ .

(٣) سورة القيامة : آية ٤ .

مليارات البشر عن مثيلتها لدى الإنسان الآخر ، فلا يتماثل شخصان اثنان في شكل هذه الخطوط ، الأمر الذي اكتشفه الناس حين اتّخذوا من (البصمة) طريقة للإمضاء ؛ ثم اعتُمدت خطوط الأنامل ـ فيما بعد ـ وسيلة لكشف الجرائم وتحديد المجرمين » .

اختلاف الوجوه والحناجر

ومن ناحية أخرى فنحن لا نرى فردين يتماثلان في كل ملامحهما وسيمائهما ، حتى التوائم لا بدّ أن يكون بينهما نوع من التمايز ، إنْ في الوجه ، أو في الحنجرة والأصوات الصادرة عنها ، فنحن لا نعثر على شخصين يتماثلان في نسق صوتيهما ، بل يمكن تمييز أحدهما عن الآخر ؛ وإلّا لاختلط الأمر في المجتمع ، فكم من مظلوم أُخذ مكان الظالم خطأً ، فوقع عليه اللوم ، وكم وقعت ضروب من الخداع ! .

والخلاصة : فلكي لا يكون المجتمع عرضة للاهتزاز وعدم الاستقرار ، نرى كيف أنّ الخالق الحكيم قد راعى هذه الأمور في خلقه .

وها نحن نرى أي قدرة للخالق عزّ وجلّ في هذه الدار الأولى ، الدنيا ، فكيف بنا لا نتذكّر الدار الآخرة ؟! يقول تعالى :

﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ، فلولا تذكّرون ﴾[1] .

فهلّا تعتبرون وتستدلّون على النشأة الثانية بالقدرة على النشأة الأولى ؟! حيث ستكون قدرته عزّ وجلّ في النشأة الثانية أتمّ وأكمل وأشرف ، ذلك أنّه عالم أوسع وأفضل وأبقى من هذا العالم :

﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خيرٌ وأبقى ﴾[2] .

---

(١) سورة الواقعة : آية ٦٢ .

(٢) سورة الأعلى : الآيتان ١٦ و ١٧ .

فالاعتقاد بالمبدأ والمعاد إذاً ، ضروريّ ، وبديهيّ ، ومطابق لحكم العقل والوجدان .

احترام قبور الأموات علامة على قبول المعاد

يذكر في أحوال (ستالين) بعد موته أنّه كان ـ إذا أشكلت عليه بعض الأمور ، ولم تنفع الاستشارات في حلّها ـ يذهب إلى قبر (لينين) ، حيث يجلس هناك وقتاً يقلّب فيه مشكلته ، حتى يهتدي إلى حلّها ! .

فها هو شخص ماديّ كـ (ستالين) يوحي له وجدانه أنّ الميّت لا ينتهي بالموت إلى العدم ، وإلاّ ، فلماذا يذهب إلى قبره ويطلب منه المدد ؟! ولماذا يقيمون قبراً للجندي المجهول ويؤدّون له مراسم الاحترام ؟ ذلك أنّ الوجدان يقول : الإله موجود ، والمعاد كائن ، والحياة بعد الموت ستكون ! وهذا هو إحساس الفطرة ، حتى ولو لم يتنزّل الوحي .

المشكل هنا : هو أنّ هذا الأمر جليّ وبديهيّ ، فلماذا ينكره أكثر الناس ؟! .

والجواب عن هذا الإشكال تعطينا إيّاه آية في سورة القيامة ، يقول تعالى :

﴿ بل يريد الإنسان لِيفجُر أمامه ﴾[1] !!

يريد الإنسان أن يغوص في شهواته ، ولذلك فهو يتعامى عن رؤية الحق ، يريد الوصول إلى الزعامة ، ومن لوازمها أن يتجاهل المسؤولية ويغترّ ، وإلاّ ، فلو كان يرى نفسه عبداً مسؤولاً ومقهوراً ،

---

(١) سورة القيامة : آية ٥ .

لعرف أنّ نفسه بيد الله ، فهل الـ « أنا » تصنع الإنسان ؟ لا ، فالغـرور ومعرفة الله لا يجتمعان .

لو كان الإنسان يرى نفسه عبداً عاجزاً لما تكبّر واغـترّ وجرى وراء الـزعامـة والتسلّط على الآخـرين ؛ لذا فـما دامت تخامـره إرادة الفجـور والشهوات فهو لن يرى الحق بكل وضوحه وجـلائه ، بـل هو يـطأ الحق ويسحقه ، إنّه الفجور !! .

هارون والمأمون يعرفان الأئمة !

يـروى أنّ المأمـون سئل يـوماً : كيف تُقـرِّب الإمام الـرضـا (ع) إليـك ؟! فقال : لقـد أخذت هـذا الأمر من أبي ؛ فقـد قدمنـا المـدينـة مرّة، وتوافد وجوهها وكبارهـا لرؤيـة أبي؛ وذات يوم، قـدم علينا رجـل يميل إلى النحافة ، فما كان من أبي إلاّ أن قام من مجلسه ، وتقدّم إليـه ، واحتضنه ، ثم أجلسه في صدر المجلس بكل احـترام وأدب ، وانصرف إليه يحدّثه و. . .

وفي الليل ، سألت أبي عمّن يكون هذا الرجل الذي عامله بكـل هذا الإجلال ؟ فقال : إنّه موسى بن جعفر (ع) .

قلت : ومن يكون موسى بن جعفر ؟ .

قال : إنّه إمامي وإمامك ! .

قلت : فلسنا على الحقّ إذاً !! .

قال : لا ، فهو صاحب الحق بالخلافة ! .

يقـول المأمـون : تجاسرت عـلى أبي ، وسألتـه لمـاذا ينـوي حبسـه وإبعاده ، طالما كان الأمر كذلك ؟ ! .

فقال : يا بني ، الملك عقيم ، فوالله لو نازعتني فيه لأخذت الذي فيه عيناك !! .

أجل ، فلو نازعه ابنه في ملكه ، لقطع رأسه ! أو لفقأ عينيه !! .

ويروى مثيل لهذه الواقعة عن بعض الملوك ، أمثال نادر شاه .

الغـرض من إيـراد هـذه الـواقعـة هـو تبيـان كم يكـون الإنسـان حقيراً ، بالقـدر الذي رأينـاه ، فهو يُعـرض عن الحق ، مهما كـان الحق واضحـاً كالشمس ، وذلـك أنّه يحبّ العلوّ ، ويحبّ الفضـل والامتياز ، ويهوى الزعامة والرئاسة !! .

« حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة »

لن ننسى حين أراد إمام الأمة قبل سنـة خلت ، أن يمضي في إنفاذ حكم رئـاسة الجمهـورية ، كي يكـون بمقدور الـرئيس أن يتصدّى لهـذا المنصب شرعـاً وقـانـونـاً ، لن ننسى قـولـه : « حبّ الـدنيـا رأس كـلّ خطيئة » .

فهذا الإعلان يحمل نذيـر الخطر للجميـع ، ذلك أنّ حبّ الـدنيا يـزرع في رأس الإنسان أنّ كـلّ حقّ متاح لـه ؛ وأنّ بمقـدوره أن يسحق كـلّ من يـزاحمـه ، أو يـزيله من طـريقـه ؛ ففي هـذا الغـرور والتكـبر والإعجـاب بـالنفس خـطر ، وأيّ خـطر ! ومن هنـا يُعـرف لماذا ينكـر الكثيرون الحقّ رغم وضوحه .

هل يعرف المنافقون الإمام ؟

والآن ، فما هو شعور كلّ إنسان بالنسبة لإمام الأمّـة ؟ وهل يملك سوى إرادته الخير للناس ، وخدمته للخلق ، وحرقته على المستضعفين ؟ ألم يقدّم امتحانه مراراً ؟ .

أجل ولكن . . ما بال تلك المجموعـات ، ألا تفهم هذا الأمـر ؟ وهل يصحّ هذا الاحتمال ؟ إنّهم واقعاً يفهمون ذلك ، غير أنّهم يتنكرون

لحقّ هو على هذه الدرجة من الوضـوح ! ويريـدون التخلّص من قائـد كهذا القائد ! ولكم خدعوا أناساً ، ولا يزالون ! ذلك أنّهم لا يغـادرون هوى أنفسهم .



البحث السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هو الذي بعث في الأمّيّين رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكّيهم ، ويعلّمهم الكتاب والحكمة ؛ وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين ﴾

المقصود بالثورة الثقافية

أثار إمام الأمة قبل قليل موضوع الثورة الثقافية ، وقد تناقلته المطبوعات ووسائل الإعلام لفترة ، كما تناولته بالبحث والتفسير .

وحيث إنّ مراد الإمام لم يتّضح بوجهه الصحيح لدى بعض الأفراد ، فإنّي سأقوم بإيضاح هذا الموضوع قبل الخوض في بحوث الأخلاق .

ليس القصد من الثورة الثقافية أن تتوقّف الدروس المتداولة في الجامعات والمدارس ، من علوم الفيزياء والكيمياء ، والطب والهندسة وغيرها ، وأن يتوقّف الناس عن تحصيلها ؛ أو أن يتوقف طلاب العلوم الدينية عن درس الفقه والأصول وغيرهما ؛ بل يجب أن تستقر برامج التحصيل وتبقى ، وأن يستمر تحصيلها بشكل أكمل وأفضل ، فنحن

بحاجة إلى المزيد من المتخصّصين ، إن في النواحي الدينية أو الدنيويّة .

إنّما القصد هو ترويج « التربية والتعليم الإسلاميّين » في المدارس الثانويّة والجامعات ، وهما التربية الإنسانية والتعليم الإنساني بالذات ، فلو اقتصر التعليم في المدارس ـ قديمها وحديثها ـ على هذه المعارف ، دون أن يرافقها التهذيب ، لصحّ فيه تعبير القرآن المجيد بقوله : « كمثل الحمار يحمل أسفاراً » ؛ ذلك أنّ باطن هذا المتعلّم لم يستوِ آدميّاً ، بل بقي على حاله الحيوانية ؛ فهو قد نال أقصى المعارف ، من علوم تفسير أو فقه أو طب أو غيرها ، واختزنها في ذاكرته ، أمّا في ذاته وحقيقته فلا شيء سوى الناحية الحيوانية ، فإذا ما مات على هذه الحال ، مات كهذا الحيوان بل أسوأ ، وها هو ضرره الآن للمجتمع في ازدياد ، كما تقدّم القول ، ولا موجب للتكرار .

التهذيب ، هو العلم والعمل

هذه المقدّمة ضرورية للتذكير بأمر مهم ، وهو أنّ التربية يجب أن ترافق التعليم أيضاً ، علينا أن نعرف الخصال الحيوانية فنخدرها ونتّقيها ، وأن نعرف الخصال الإنسانية فنعمل بها ؛ فمع العلم يجب أن يكون العمل ، وأن يكون التهذيب ، وهو السبيل إلى الفرار من الملكات الحيوانية ، والتزيّن بالملكات الإنسانيّة ؛ وبذلك يكون خلاصه منها ، لا أن يكتفي بالعلم وحده .

الشرّ في الحيوان لا يكمن في يده أو رجله أو أنيابه ، إنّما يكمن في طبيعة الافتراس فيه ، وهي طبيعة توجد في الإنسان كذلك ، كما توجد فيه الطبيعة والملكة الإنسانية ، وهو كما يستطيع أن يكون كالحيوان والذئب ، يستطيع أن يكون كالملائكة أيضاً .

الخصال والملكات لا تظهر دفعة واحدة

كما أنّني أودّ التنبيه إلى هـذا الأمر ، وهـو أنّ الخصلة ، أي الملكة ليست شيئاً يظهـر دفعة واحـدة ، بل هي تـظهر نتيجـة لتكرار الأقـوال والأفعال ، فمن كانت أقواله وأفعاله مـطابقة لمثيلهـا عند الحيـوان ، فإنّ حيـوانـاً سينبثق عنــه بعـد مــدّة ؛ وبتعبـير أبسط : إذا شرع الشخص باستعمال العنف بلسانه ويده ورجله ، مسبّباً الضرر والظلم للآخـرين ، تـرك هذا السلوك القبيـح تـأثـيره في بـاطنـه ، وأصبـح بعـد مـدّة أشبـه بالكلب .

قلنا : إنّ الإنسان هو غير هـذا اللحم والجلد ، وحقيقته التي هي نفسه الناطقة ، تتخذ شكلها تبعاً للطبائع المختلفة ، فإذا ما كانت أفعال الشخص وأقواله مطابقة لميزان الشرع ، أصبح بعد مدة إنساناً .

بـدون جهد وتعب لن يبلغ الإنسـان مستـوى الآدميـة ، فـإذا مـا توهّم أحد أنّه يستطيع دون رياضة أن يطهّـر نفسه من الملكـات القبيحة الحيوانية ، ويزينها بالملكات الرحمانية فهو يُغـرق في الخيال الفـج ، ذلك أنّ سنّة الله في خلق مخلوقاتـه استقرّت عـلى أن يكون الإنسـان باختيـاره السبب في أن يكون حيواناً أو آدميّاً ، فبيده يستطيع أن يتنكّب بالتدريج عن الصفـات الحيـوانيـة ، ويسعى أن تلتزم أعضـاؤه وجـوارحـه سبيـل النـواحي الإنسانيـة ، كي تكون ذاتـه وحقيقتـه نـورانيتـين ، ومصـدراً للخـيرات ، فيرشـح منه الـطهر ، ويكـون مورداً للبركـات ينتفع الخلق منه .

عليّ (ع) يمارس رياضة النفس

أمعنـوا بـدقّــة في هــذا القـــول لأمـير المؤمنــين (ع) ، في وصفـه للمتّقين ، يقول في الواحد منهم :

« الخير منه مأمول ، والشرّ منه مأمون »[1] .

فمن راض نفسه وأصبح إنساناً علامته أن يكفّ ضرره عن الآخرين ، فالناس في أمان وراحة من شرّه ، لا بل هم يأملون الخير منه .

فلا يتوهّمنّ أحد أنّه ببساطة ، وبعبادات ظاهريّة من صلاة وصوم وحج - كما يفعل البعض من عديمي الإدراك - يستطيع أن يبلغ أيّ مكان ، أي أن يستوي آدميّاً ، فما يفعله الآدمي هو أن يضعّف النواحي الحيوانيّة عنده ، فيكفّ لسانه ويحبسه ، فمن أطلق للسانه عنانه ، فنهايته أن يستوي حيواناً مفترساً .

عبارة أخرى يقولها أمير المؤمنين (ع) في هذا الصدد ، يقول :

« وإنّما هي نفسي أروض بها لتأتي بها آمنة يوم القيامة »[2] .

فعلينا ، ونحن شيعة علي (ع) أن ننهج نهجه ونسلك مسلكه ، كي نكون من شيعته .

سأتحدث اليوم عن خصلة من الخصال الحيوانية ، كي نتعرّف عليها جيّداً ، ثم - بالتالي - نحذر العمل بها ، ونتّجه إلى الخصلة الإنسانية التي تقابلها .

الغضب ، طبيعة حيوانية

الغضب من الصفات الحيوانيّة التي يمتلكها الإنسان ، وهي أمر طبيعي يتولّد لدى الإنسان أو الحيوان عن إحساس قاس حادّ تجاه آخر ، فإذا ما صادف مانعاً يمنعه من تحقيق غاية له ، أو يخالف ميله ، أحسّ

---

(١) نهج البلاغة ، خطبة همام .

(٢) نهج البلاغة .

بالضيق ؛ كأن يسمع من أحد قولاً قبيحاً ، أو أن يقع به ظلم ، فيتولّد عنده إحساس بالرغبة في الانتقام ، ويغلي الدم في عروقه ، لذلك نرى أنّ لون البعض يميل إلى الحمرة ، ويظهر بوضوح تحرّك الدم في وجوههم ، وإذ ذاك تميل النفس إلى الانتقام وتسعى إليه .

فيشرع بالتفوّه بكلام يجانب الحقيقة ، ويقذف الآخر بعبارات فاحشة بذيئة ، أو يستخدم يده وقدمه ، فهو في تلك الحال لا يدري ماذا يفعل ؛ إنّها الحالة الحيوانية ، فهو لا يلحظ الحق ، ويمدّ يده إلى الباطل ، بعين كعين الحيوان تماماً ، وهو حين ينساق مع سَوْرة الغضب ، لا يرى أمامه سوى الانتقام ، حتى أنّه أحياناً يمزّق ثوبه ، ويوجّه ضرباته إلى شيء غير منظور ، أو يضْرب نفسه !! .

ويتّفق أحياناً في حالة الغضب الشديد ، والعجز عن الانتقام طبقاً لميله ، يتّفق له أن يصاب بصدمة أو سكتة قلبيّة ، جرّاء غليان الدم في عروقه ، وأنا أعرف أناساً أصيبوا بالسكتة في حال الغضب وماتوا ، أو منهم من أصيب بالشلل والفالج ؛ وقد كان من المصلّين ، غير أنّ الصلاة وحدها لا تصنع آدميّاً ، بل عليه أن يكفّ نفسه ويلجمها ، وأن لا يشحن الحالة الحيوانية بالقوة ، أن لا ينقلب ذئباً مفترساً ، فالذئب والكلب من طباعهما تمزيق اللحم والجلد ، أمّا ابن آدم ، فهو في حال الغضب يهتك شرف الغير وكرامته ، وهذا يفوق الظلم الظاهري بكثير .

أمّا العلاج . . . فكيف يكون ؟

إذا أراد الإنسان أن يبتعد عن شرّ الغضب فعليه قبل كل شيء أن يلجم نفسه عند الغضب ، وأودّ أن ألفت الانتباه إلى أن حفظ النفس من شر الغضب يكون سهلاً للغاية في البداية ، أمّا إذا لم يراع الحلم والصبر ، واستدامت الحالة ، وصل الأمر إلى حدّ من السوء يصعب معه كبحه وإيقافه ، بل يغدو ذلك محالاً .

أنتم الآن شباب ، وفي بداية تكليفكم ، ولم تظهر لديكم الصفات الحيوانية بعد ، لذلك فباستطاعتكم ضبط أنفسكم بسهولة ، فإذا ما تلقّى أحدكم إهانة يمكنه أن يصبر عن الردّ ، فالتمرّن على هذا الأمر سهل عليكم .

مالك الأشتر والشاب العابث

لا بد سمعتم بمالك الأشتر قائد جيش أمير المؤمنين (ع) ، ويقول عنه عليه السلام ما مضمونه : « كان مالك منّي كما كنت من رسول الله (ص) » ؛ كان كبير قبيلة (كندة) ، وقائداً عاماً للجيش .

كان يمرّ يوماً في سوق الكوفة ، وهو يرتدي لباساً قديماً وقصيراً ، رآه أحد العابثين وكان لا يعرفه ، فراح يسخر منه ، ثم رماه بقطعة من الطين الجاف ؛ لكنّ مالكاً تابع طريقة دون أن يلتفت إليه .

قال أحدهم للشابّ : أتدري من هذا ؟ .

قال : لا .

قال : إنّه مالك الأشتر .

خاف الشاب وصار يرتجف ، ثم انطلق وراء مالك ليسأله الصفح عنه ، فعرف أنّه دخل المسجد للصلاة ؛ فتبعه ، فوجده يصلّي .

وبعد أن أتمّ صلاته تقدم منه ، وارتمى تحت قدميه يسأله أن يعفو عنه . فقال له مالك :

لا خوف عليك ، فقد عفوت عنك منذ البدء ، ولم أقدم المسجد إلّا لأستغفر الله لك !! .

كان مالك الأشتر من شيعة علي (ع) ، فهل يصح أن يقال : إنّنا كذلك ؟ ما الذي يقرّبنا من علي (ع) ؟ إنّه « والكاظمين الغيظ » . إنّهم

الذين يمسكون أنفسهم عند الغضب ، لا أن نرتدّ على من رمانا بحصاة فنرميه بحجر ! بل أن نمرّ باللغو فلا نلتفت إليه ، ثم نبقى كراماً ، قال تعالى :

﴿ وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً ﴾[1] .

هل جزاء من رماك بالطين أن ترميه بالحجر ؟

إن ما يشيع من أمثلة بين العوام كالمثل القائل : « جواب الفحش هو الفحش » ، أو : « من رماك بالطين فارمه بحجر » ، وغيرهما ، إنّما هي أمثلة غير صحيحة بأي وجه من الوجوه ؛ ذلك أنّ الردّ على الوحشيّة لا يكون بالوحشيّة ! فلو رددت بالفحش على من رماك بالفحش ، وصرت مثله ، فما الفرق بين ابن آدم وبين الحيوان إذاً ، فإذا كان الفحش قد بدر منه بمقتضى حيوانيّته، فأمسك نفسك أنت بمقتضى إنسانيّتك ، لعلّه يتلقّى منك درساً في الأدب .

يقول المرحوم النراقي في (معراج السعادة) :

إذا رمى أحد آخر بالفحش ، فلا حقّ له في معرض الرد أن يرميه بالفحش ، وإلاّ لأصبح مصداقاً لقول رسول الله (ص) : « المتسابّان في النار » .

فكلا المتسابّين في النار ، ولو أنّ « البادىء منهما أظلم » ، غير أنّ الآخر لو ردّ عليه لكان معتدياً مثله ، ذلك أن الفحش يتأتّى عن الغضب والحيوانيّة ، من أي طرف أتى .

ثم يردف فيقول : فعليه إمّا أن يسكت ، وإمّا ـ إذا اختار الردّ ـ أن يحذر بقوة من قول الكذب أو القذف أو الافتراء ؛ وإذا أحبّ أن

---

(١) سورة الفرقان : آية ٧٢ .

يبقى في صون عن هذه الآفات ، فليقل له : « يا جاهل » مثلاً ، وهي عين الواقع ؛ ويكون قد قام بالردّ أولاً ، ولم يقل كذباً ثانياً ، ولم يبدر منه تصرف وحشي ثالثاً ، وأخيراً . . . فمن هو الذي ليس بجاهل ؟! .

الصبر عند الغضب خصلة إنسانية

لو صمّم الإنسان على أن لا يقابل ما يعرض له من أمور يكرهها بالغضب الحيواني ، بل أن يختار الناحية الإنسانية ، فهو إنسان حقاً ، والإنسان من الأنس ، والصبر والحلم عمل الإنسان ، أمّا الحيوان فلا يعلم عن الحلم شيئاً ، فكيف يفهم ما هو الحلم ؟ أمّا أنا وأنت ، ونحن نُعدّ من الذين يفهمون ، لو لم يكن لدينا سوى الغضب ، فما الفرق بيننا وبين الحيوان ؟! .

أمّا إذا اخترنا سلوك طريق الحلم ، فقد استعملنا صفة إنسانيّة ، نريد بذلك السير في طريق الآدمية والنجاة من الخصال الحيوانية .

قلت : لا يمكن الوصول إلى الأخلاق الإسلامية دون تعب ومشقّة ، فأمام ابن آدم طريقان ، وباستطاعته أن يستقيم إنساناً أو ينقلب حيواناً ؛ فلا جبر هناك ، والله تعالى أراد للإنسان أن يختار ، فأعطاه لساناً ، كما أعطاه حرّية الاختيار ، فباستطاعته أن يقول الفحش ، أو يثير فتنة ، أو يمارس الوحشية ، كما باستطاعته بهذا اللسان أن يقوم بالإصلاح ويخمد نار الفتنة .

الحلم يعني الصبر والجلد أمام الملّمات ، فإذا رأى مكروهاً أمسك نفسه ، ولجم لسانه ، وكفّ يده ورجله ؛ فإنّ ضبط النفس في البداية يخمد النزاع ، ويضع الطرف الآخر في موقع الخجل ، بل ربّما ساقه إلى الاعتذار .

ردّ ملفت للمحقق الطوسي على رجل جاهل

يـذكر في أحـوال المحقّق الكبير خـواجة نصـير الدين الـطوسي أن رجلاً جاهلاً خاطبه بكلمة « كلب » فقال :

أنت دعـوتني بالكلب ، وقـد أعملتُ الفكـر فلم أعـثر عـلى شيء يربطني بالكلب ، فلي قـائمتان وللكلب آربـع ؛ وهو يمتلك أنيـاباً حـادّة يفتّت بها العظام ، أما أسناني فقـد توقّفت حتى عن العمـل ؛ وله شعـر ليس عندي مثله، كما أنّ لـه مخالب ، وليست لي مخـالب و. . . وهكـذا راح يداريه بالحلم حتى استكان ! .

فلو فـرضنـا أنّـه ردّ عليـه بقـولـه : بـل أنت الكلب ، وأبـوك ، وأمّك ؛ لكان الآخر ازداد اشتعالاً ، وراح يكيـل له و. . وتسـوء الحال أكثر .

النبـع تـقـطعـه المغـارف إنّمـا لو صار نهراً ليس تقـطعه السـدود

كيف ينشب النزاع ؟

قصة لطيفة أرويها لكم في هذا الصدد ، ننوّع بها حديثنا ، ولعلّها تصلح شاهداً على أقوالنا :

إسكافي اشتُهر بسوء خلقه ، وميله إلى إثارة النزاع والمشاكل ، أتاه رجل صباح يوم ، وبعد السلام والسؤال عن الحال ، قال :

أرجو معذرتك ، فلديّ سؤال أريد أن تجيبني عنه ، وسؤالي هو : كيف ينشب النزاع ، وممّ ينشأ ؟ .

نظر إليه الإسكافي مليّاً ، ثم قال : ما هذا السؤال الذي أتيتني به منذ الصباح ؟ أهو هزل ومزاح ؟! .

قال : لا ، إنّه سؤال جدّي ، وعليك حتماً أن تجيبني عنه .

قال الإسكافي : لعلّك أيّها الرجل فقدت عقلك ! وما يدريني كيف ينشأ النزاع ؟ .

قال الرجل : لن أدعك حتى تشرح لي ما سألته ! .

قال الإسكافي : اخجل من نفسك يا رجل ، فأنت لا عمل لك سوى تعطيل الناس عن أعمالهم ! دعني أكمل عملي وانصرف إلى شأنك ! .

والخلاصة : لن أطيل عليكم ، فقد ارتفع صراخهما ، وتطور الأمر بينهما إلى نزاع حقيقي ، فما كان من الإسكافي إلّا أن هوى بمدقّ الأحذية على رأس الرجل فأدماه !! .

كان عليه حين دعاه الإسكافي بالرجل العاطل عن العمل ، أن يفهم كيف ينشأ النزاع ، لكنه لم يفعل ، بل أصرّ وتمادى ، حتى انقلب الأمر إلى النزاع .

ففي البداية يكون الأمر بسيطاً ، لكن الإصرار يصل به إلى تبادل الكلام الفاحش والبذيء ، ثم إلى الضرب أو استعمال السكين وخلافها ، لا سمح الله .

الدابة المرتاضة أو المروَّضة تعني الحيوان الذي روّضه صاحبه وعلّمه أن لا يغادر معلفه ، فعلى الجميع أن يروضوا أنفسهم ويلجموها كي تعتاد على أن لا تتجاوز الحدود الإلهية ، والحدود الإنسانية ، الأمر الذي لا يحسنه الحيوان ، والرياضة لا شك صعبة في البداية ، لكنها لا تلبث بعد مدة أن تغدو سهلة هيّنة ، لا بل يصبح كظم الغيظ وإخماد الغضب مدعاة للسرور والبهجة عند من يقوم به .

الأمر يبدو صعباً لكنه بالتصميم يهون

في رواية أنّ أحد الأنبياء في عالم الملكوت أُوحيت إليه أمور عليه

القيام بها بترتيب معين ، قيل له : عليك أولاً إذا ذهبت إلى البادية غداً أن تأكل أول شيء تراه ، وعليك ثانياً أن تتوارى ، ثم . . إلى أن عدّدوا له خمسة أمور ، وشاهدنا هو الأمر الأول منها ؛ وأكرّر أنّ الصورة ملكوتيّة لا ملكيّة ، أي مثاليّة لا خارجيّة .

كان أولَّ شيء شاهده جبل كبير ، فأخذه العجَب ، إذ كيف يمكن أكل الجبل ؟! ثم قال في نفسه : أنت مأمور ، وعليك أن تقوم بما أمرت به ، بالقدر الذي تستطيع ، عليك أن تعمل ، فإن تمّ الأمر أم لم يتمّ ، فهذا ليس شأنك .

وراح بهذا التصميم يقترب من الجبل ، وكان كلّما تقدّم خطوة رأى أنّ الجبل يصغر ، وهكذا حتى اقترب منه ، فإذا به يضحي بقدر لقمة صغيرة ، فمدّ يده وتناولها ، ووضعها في فمه ، فإذا هي سائغة وأحلى من العسل .

هذا الملكوت الذي أرَوْه إيّاه ، ثم أفهموه فيها بعد أنّه الغيظ ، فبداية يكون تحمّله على الإنسان صعباً ، فهو كالجبل الذي عليه أن يأكله ؛ فالصبر عن الانتقام صعب حقّاً ، فليس سهلاً أن يتلقّى الشخص فحشاً وإهانة ، ثم لا يردّ ، أمّا بالتصميم مع الحلم والعمل على كظم غيظه ،فسيجد الأمر سهلاً ، لا بل سيشعر بلذّة العفو .

وردت في أحد الكتب الأدبيّة حكاية ملفتة تتضمّن درساً ، أرويها توخّياً للاعتبار والتذكير .

إنيّ جدير بأكثر من هذا

كان أحد الأجلّاء يعبر زقاقاً ، فإذا ببعض تراب الكناسة يلقى عن سطح أحد البيوت فيقع على رأسه ، فما كان منه إلّا أن رفع رأسه وقال :

يا ربّ ، إنّي شاكرٌ لطفك ومنّتك ، فإنّ ذنوبي لجديرة بأن أرجم عنها بالحجارة ، لكنّك رميتني بدلاً عنها بالتراب الناعم !! .

لا بدّ قرأتم أو سمعتم عن رسول الله (ص) أنّه قذف بالتراب مرّات على رأسه الشريفة ، حتى أنّه قذف بقطعة من العظم مرّة ، فأصابت ساقه فأدمتها ، كما كانوا يرمونه بفضلات جوف البعير على رأسه ؛ فلا يكون منه ـ صلوات الله عليه ـ إزاء فعلتهم إلّا أن يدعو لهم ويقول : « اللهم اهد قومي فإنّهم لا يعلمون » ؛ إنّه يسأل الله أن يهديهم ، ويجد لهم العذر والعفو من الله لأنّهم لا يعلمون ما يفعلون .

فهذا المسلك الحميد من رسول الله (ص) يجب أن يكون لنا منهجاً وقدوة ، وخاصّة أهل العلم ، فعليهم أن يصبروا على ما يلقَوْنه من المجتمع ، وأن يعلموا أنّ هذا الوضع لن يدوم ، ولا بدّ للصبح أن يشرق .

وأختتم هذا العرض بحديث شريف عن الغضب وكظم الغيظ ، الذي هو موضع بحثنا .

حقن الدماء بالصبر عن الغضب

قدم أحد رؤساء القبائل التي تستوطن البادية إلى رسول الله (ص) ، وقبل أن يغادره في ختام زيارته ، سأله النصح ، فقدّم له (ص) نصيحة كان فيها له نفع كبير ، ويروي الإمام الصادق (ع) هذه الواقعة فيقول :

« قال رجل للنبي (ص) : يا رسول الله علّمني .

قال : اذهب ؛ ولا تغضب .

قال الرجل : قد اكتفيت بذاك .

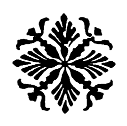
فمضى إلى أهله ، فإذا بين قومه حرب ، قد قاموا صفوفاً ،

ولبسوا السلاح ، فلمّا رأى ذلك لبس سلاحه ، ثم قام معهم ؛ ثم ذكر قول رسول الله (ص) : « لا تغضب » ، فرمى السلاح ، ثم جاء يمشي إلى القوم الذين هم عدوّ قومه ، فقال :

يا هؤلاء ، ما كانت لكم من جراحة ، أو قتل ، أو ضرب ليس فيه أثر ، فَعَلَيَّ في مالي ، أنا أوفّيكموه(١) .

فقال القوم : فما كان فهو لكم ، نحن أولى بذلك منكم .

قال : فاصطلح القوم ، وذهب الغضب »(٢) .



---

(١) « ليس فيه أثر » : أي علامة جراحة لتصحّ مقابلته بالجراحة . . . والإيفاء والتوفية : إعطاء الحقّ تامّاً .

(٢) أصول الكافي ، باب الغضب ح ١١ ، وسفينة البحار ج ٢ ص ٣٢٠ .

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]

البحـث السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الغضب رحمانيّ وشيطانيّ

كـان بحثنا السـابق يدور حـول الغضب ، فغضب الإنسـان يجـرّ صـاحبه إلى الفسـاد والضياع ، فتغـدو صورتـه الملكوتيّـة صورة حيـوان مفترس ، طبقاً لسلوكه ، والقرآن المجيد يقول :

﴿ إنّ شرّ الدوابّ عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون ﴾(1) .

فـالغـاضب يصبح أسـوأ من الحيـوان المفـترس إذا سلك سبيـل الغضب الحيواني ، وتكون عاقبته كـذلك ؛ وعلينـا اليوم أن نشرح هـذه الحقيقة ، وأن نميّز الغضب الحيواني من الغضب الإنساني ، وكيف يقـود الأول صاحبـه إلى حيوان في عالم الملكوت ، بينما يقود الثاني صـاحبه إلى إنسان كامل ، هو مصدر للخير ومورد للبركة .

الغضب حالة في الإنسان تظهر نتيجة لمصـادفته أمـراً لا يلائمـه ، فيهيج ويندفع الدم من باطنه ، ويسعى للاشتباك مـع هذا المـانع الـذي اعترضه ، فإذا لم يصل إلى ما أراده راح يسعى إلى الانتقام .

---

(1) سورة الأنفال : آية ٢٢ .

وجود الغضب في الإنسان ضروري

الإنسان بدون وجود الغضب في داخله ، لا يستطيع العيش بالطبع ، شريطة أن يوجّهه الوجهة الصحيحة ، فوجود الغضب في الإنسان لازم ، وذلك كي يسير به في طريق الإنسانية ؛ فالإنسان لا يستطيع العيش دون شهوة ودون غضب ؛ فيُقتضى وجود الشهوة فيه كي يسعى وراء الأكل والزواج ، كما أنّه لولا الغضب ، ومع وجود الموانع ، فكيف يستمرّ بحياته ؟ .

أمّا إذا وجّهه هذا الغضب الوجهة الحيوانية ، وجهة الهوى والهوس ، فهذا موجب لسقوطه عن عالم الإنسانية .

والآن لنر ما هو الغضب الإنساني ، وما هو الغضب الحيواني .

الغضب الحيواني من حيث الكم والكيف

يكون الغضب حيوانياً حيث لا يجيزه العقل والشرع ، حيث يكون بحكم العقل والشرع غير مبرّر ؛ كما أنّه ـ من حيث كيفيّته وطبيعته ـ حين يناقض ميزان العقل والشرع ، فهو غضب حيواني ومكروه ؛ إذ ينبغي على الغضب أن يتّجه بصاحبه الوجهة الصحيحة ؛ وذلك يكون عند وجود مانع يحول دون التقدم والكمال ؛ فإذا ما أراد أحد أن يوقع بك ظلماً ، فعليك أن تقابله بالغضب أي أن تقف في وجه الظلم ، وليس حيث يكون الغضب دون مبرّر ، ولا بدّ من ذكر مثال كي يتّضح هذا الأمر .

لو صدمك إنسان دون قصد منه ، كأن يكون قد وقع وصدمك أثناء وقوعه مثلاً ، فسبب لك ألماً أو ضرراً ، فإذا غضبت منه ، ورحت تشتمه واشتبكت معه تريد الانتقام منه ، فهذا الغضب حيوانيّ ، ولا محلّ له ؛ ذلك أنّه لم يقم بما قام به متعمّداً ، فلا قصد في عمله .

فالحيوان لا يدرك معنى العمد والسهو ، ولذا فإذا وقع ما يخالف ميله ، تصدّى للانتقام ؛ أمّا الإنسان المدرك ، فقادر على التمييز بين ما إذا كان من أساء إليه يقصد الإساءة أم لا .

السجّاد (ع) والغلام قاتل ابنه

كان عند الإمام السجّاد (ع) قومٌ أضياف ، فاستعجل خادماً له بشواء كان في التنور ، فأقبل به الخادم مسرعاً ، فسقط السفّود منه على رأس بنيّ (ابن) لعليّ بن الحسين (ع) تحت الدرجة ، فأصاب رأسه فقتله ، فقال علي (ع) للغلام ، وقد تحيّر الغلام واضطرب :

« أنت حرّ ، فإنّك لم تعتمده ، وأخذ في جهاز ابنه ودفنه »[1] .

وتروى هذه الواقعة على وجه آخر ، مفاده أنّ الغلام بعد أن فعل ما فعل ، عراه خوف شديد ، فقا للإمام (ع) :

إنّ الله عزّ وجلّ يقول : « والكاظمين الغيظ » .

قال (ع) : قد كظمت غيظي .

قال : « والعافين عن الناس » .

قال (ع) قد عفا الله عنك .

قال : « والله يحبّ المحسنين » .

قال (ع) : اذهب فأنت حرّ ! .

اعملوا خلافاً لميول أنفسكم وأهوائكم ، ففي هذه الواقعة مكان للعفو ، وليس للغضب ، ذلك أنّه لم يكن فيما جرى قصد سوء .

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٦ ص ٩٩ .

إذا سمع شائعة غضب

يتّفق أن يكسر طفل وعاء، فيغضب منه أبوه أو أمّه ، فينزلان به العقاب أحياناً ؛ وهذا خطأ ، ذلك أنّ ما فعله الطفل لم يكن سوى لعب ، فهو لم يشأ كسر الوعاء .

هذا نموذج عن الموضوع الذي نحن بصدده ، فما لم يتوفّر القصد في إتيان عمل ما ، فالغضب إزاء ذلك العمل ليس مبرّراً ؛ ومثله كثير ؛ فبعض الناس يغضبون لمجرّد سماعهم شائعة عن شخص ، ويضمرون الحقد والضغينة لمن نالته هذه الشائعة ، في حين أنّ الكثير من الشائعات يكون دون أساس .

ليس ما يخالف توقّعنا موجباً لغضبنا

ينشأ الكثير من أشكال الغضب غير المبرّر عن أمور غير متوقّعة تواجهنا ، وإليكم مثالاً :

يتوقّع شخص من رفيق له أن يقرضه مبلغاً من المال ، فيطلبه منه ، فلا يستجيب لطلبه ؛ فينفعل ، ويأخذه الغضب منه ويضمر له البغض في قلبه ، وهنا موضع الخطر .

يروى عن الإمام الصادق (ع) أنّه كان يوصي أصحابه بأنّ عليهم ـ ما استطاعوا ـ أن يمتنعوا عن طلب حاجة من أحد ؛ وسبب ذلك معلوم ، فإذا ما طلب أحدهم شيئاً ولم يُعطَه ، تضايق ، وعرته حالة من الانفعال النفسي والغضب ، يتلوها ـ لا سمح الله ـ البغض والضغينة ، في حين أنّ عليك ـ إن لم تُعطَ ما طلبتَ ـ أن تحمل الأمر على الصحّة ، فلعلّه لم يكن لديه ما طلبتَه منه ، أو لعلّه في حاجة إليه نفسه ؛ وهل أنت دائن له أصلاً ، كي يكون طلبك حقاً لك ، وواجباً عليه أداؤه ؟! .

والخلاصة : فعلى الإنسان أن يقلّل مطالبه ، فلعلّ من طلبتُ منه شيئاً لا يطمئنّ إليّ كي يأتمنني على ماله ! .

الورع يثبت الإيمان ، والطمع يضعفه

عن أبان بن سويد ، عن الصادق (ع) قال : قلت : ما الذي يثبت الإيمان في قلب العبد ؟ قال :

« الذي يثبته فيه ، الورع ؛ والذي يخرجه منه ، الطمع »[1] .

يتوقّع امرؤ في نفسه أنّ على فلانٍ أن يُصلح حالي ، فيعطيني قرضاً أرفع به حاجتي ، ونظائر ذلك .

يجب على الإنسان الموحّد أن يقرّ منذ البداية أنّ الله وحده هو قاضي الحاجات وحلّال العقد ، وأن يعرف أنّ تأثير الأسباب يتعلّق بالمدى الذي تبلغه إرادة الله فيه ؛ فما لم يشأ الله ، فلن يكون لأي سبب تأثير .

الإنسان الموحّد هو من يؤمن بأنّ الله تعالى هو مصدر الخيرات جميعها : « بيده الخير » ، وأنّ المخلوقات ليست سوى مجاري لهذه الخيرات ؛ فإذا ما قصد ملخوقٌ مخلوقاً مثله ، وكان كل توقّعه منصبّاً عليه ، وأنّه المؤهّل لإصلاح حاله ورفع حاجته ، فهذا هو الشرك ! فأنا إن كنت مسلماً موحّداً فإن لسان حالي سيقول :

إلهي ، إنّي أقصد هذا الشخص بالأمل فيك أنت ، فإن قدّرت لي ما أنا بحاجة إليه ، فاجعل لي بيد هذا الشخص من أمري مخرجاً .

اقصر الأمل تدفع غائلة الغضب

علامة الإنسان الصادق الموحّد ، أنّه إذا لم تُقض حاجته ، ولم يلق

---

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ٩٣ .

لما أراد استجابة ، فلا يغتم لذلك ؛ بل هو يقول : الله لم يشأ ، ولم يكن ذلك في صالحي .

أمّا إن قُضيت حاجته ، وتحقّق له ما أراد قال : الشكر لله وحده ، فقد تلطّف وجعل بيد هذا الشخص لأموري حلاًّ .

وليس هناك تناقض بالطبع فيما إذا شكر من مدّ له يد العون ، ذلك أنّ من لم يشكر المخلوق ، إنّما هو لم يشكر الله :

« أشكرُكم لله ، أشكركم للناس »[1] .

وهذا كما تقدّم ، إنّما هو من مجاري لطف الله وخيره ، لذلك قيل : إنّ تقديم الشكر للسبب الذي اختاره الله مجرى لإصلاح العمل ، لازم ومأمور به ، إنّما ليس باعتبار السبب مستقلاًّ في التأثير ، وباعتبار أنّه مَن فعل الفعل ، لا ، فهذا هو الشرك ! .

فحين نتوقّع من الخلق أمراً ، ولم يتحقّق هذا الأمر ، قادنا ذلك إلى الغضب ، وكان سبباً للبغض والضغينة ؛ فهنا ، ومنذ البداية ، ينبغي التوجّه إلى أنّ الفعل بيد الله عزّ وجلّ ، وليس بيده ؛ فالله إذا شاء ، أي كان صلاح المرء في هذه المشيئة ، كان الحل على يد السبب .

فبالالتفات إلى هذا المعنى ، ينتفي ظهور الغضب غير المبرر من الأفراد ، ذلك أنّ التوقع قد انتفى منهم .

الغضب عند وقوع الظلم والمعصية لا غبار عليه

الغضب ضروري عند وقوع الظلم ، كما جرى في حالات كثيرة جار فيها الطغاة على حرمات المسلمين ، فقد كانت جناية قتل واحدة ، استشهد فيها المرحوم الصدر وأخته ، كافية لإشعال غضب المسلمين في

---

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٧٠٩ .

كلّ مكان ، ناهيك عمّا جرى من الولوغ في دماء آلاف المسلمين .

وكذلك الغضب على المجاهرين بالفسق ، الذين يجاهرون بارتكاب المعاصي ومخالفة أوامر الله عزّ وجلّ .

والغضب أمام الظلم والمعاصي ينبغي أن يكون بقدر يتناسب مع الظلم والمعصية الواقعين ، فالغضب يتفاوت بالنسبة للذنوب ، ففي بعضها يكون أشدّ وأقوى ، حتى يستدعي الانتقام بما يناسب حجمها .

فرؤية شعرة نسائية على أحدهم مثلاً ، أو رؤية شخص يرفع كأس الشراب علناً ، أو رؤية شخص يوقع الأذى والظلم بآخر ، أمور متفاوتة غير متناغمة ، وبعضها بالتالي يفوق الآخر شدّة .

ففي معرض الانتقام مثلاً ، شخص وجّه لك صفعة ، فليس بمقدورك أن تردّ عليه بما يزيد عنها ؛ أو وجّه أحدهم لك شتيمة ، فرددتها بشتيمتين ؛ أو أنّه قذفك بكلام قبيح أهدر به كرامتك ، فلا حقّ لك أن تردّ قذفه إيّاك بقذف آخر له ولمن يلوذ به[1] .

وفي كل حال ، فالعفو أفضل ، « ففي العفو لذّة ليست في الانتقام » .

في التجاوز عن الحدّ مسؤولية شرعية

إذا تجاوز امرؤ الحدّ في معرض الردّ والانتقام ، ترتّبت عليه مسؤولية شرعية ؛ ففي القذف يقام الحدّ على القاذف ، وفي الضرر البدني تتوجّب الدية ، فمن صفعك صفعة احمرّ منها لون المكان الذي تلقّاها ، فصفعته في معرض الردّ صفعة اسودّ منها مكانها ، فهذا تجاوز ، وينبغي التفقّه بما ورد في ذلك في كتب الديات .

---

(١) يراجع بحث القذف في كتاب (الذنوب الكبيرة) من منشورات الدار الإسلامية .

فليس في عمل الحيوان نظام أو التزام ، والغضب الحيواني يعقبه الانتقام دون رويّة أو صبر ؛ فما أكثر ما يبدر من ذئب مفترس مثلاً ، حتى يصل إلى حدّ قتل الطرف الآخر ! .

فأصل الغضب إذاً ، لا غبار عليه ، شرط أن يكون في محلّه ، وبالمقدار اللازم ؛ فهو لازم في مقام الظلم والمعصية ، ويجب أن يكون الردّ على أيّ منهما بمقداره ؛ وفي هذا الصدد يقول القرآن المجيد :

﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾[1] . لا أكثر !

فينبغي بداية معرفة قدر « اعتدى عليكم » ، ثم يراعى الـ « مثل » ؛ والقرآن المجيد من ناحية أخرى يُدرج في عداد المؤمنين : « الكاظمين الغيظ » ، الذين يحبسون غيظهم ، ويمسكون على ما في أنفسهم منه ، فلا يتجاوزون ذلك إلى الفعل .

الآخرة لمن لم يريدوا علوّاً

يورد ابن فهد الحلّي ملاحظة لطيفة فيقول :

لو كان اثنان في حالة من الغضب ، وأردت أن تعرف إن كانا مؤمنين بالله أم لا ، فقل لأحدهما : اعفُ من أجل الله ، فلا يلتفت إلى طلبك ؛ فإذا ما دسست بيده قطعة نقدية أو مالاً وقلت : خذ هذا واهدأ ، لرأيته قد سكن وعفا !! .

أجل ، فأكثر الناس مصداق للآية الكريمة : « أخلد إلى الأرض » ! لكنهم عن الآخرة معرضون .

وعلى قول الشيخ البهائي : يجب على أهل العلم أن لا يتركوا ذكر الآية الكريمة :

---

(١) سورة البقرة : آية ١٩٤ .

﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلوّاً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتّقين** ﴾[1] .

الذين لا يهتمّون للدنيا ، فمن كانت الزعامة في الدنيا كلّ همّه ، فكيف بمقدوره بلوغ هذه المراتب ؟ بل هناك لفتة مهمّة في الآية ، هي قولها « لا يريدون » ، فهي لم تقل : « لا يعلون » في الأرض ، بل قالت : إنّهم حتى لم يريدوا قلبياً ، فهم لا يريدون أصلاً ، العلوّ في الأرض ، وليسوا من طلّاب الشهرة أصلاً ، فيُعلم أنّ طالب الشهرة جاهل ؛ ذلك أنّ من لم يعرف بعدُ حقيقة الدنيا ، ولم يدرك حقيقة ودوام الآخرة ، فإنّما هو إنسان جاهل ، ولن يكون له نصيب من مقامات الآخرة ، إذ :

﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنّما يتذكّر أولو الألباب** ﴾[2] .

أجل ، فأهل العلم ، أولو الألباب ، أصحاب العقول هم :

﴿ **الذين يذكرون الله قياماً ، وقعوداً ، وعلى جنوبهم** ﴾[3] .

فما لم يبلغ الإنسان مرتبة أولي الألباب ، فلا تكون الدنيا عنده أهمّ من الآخرة ، فماذا يُنتظر منه ؟ فوجود كل امرىء هو بقدر إدراكه ، ومعرفته هي حدّ وجوده ، فمن لم يتجاوز حدّ الحيوانية ، كيف سيصل إلى جوار ربّ العالمين ؟! .

التعلّق بالآخرة يعرف عند الغضب والشهوة

إنّ ما يقال لك : أمسك غضبك ، احذر السقوط في الغضب

---

(١) سورة القصص : آية ٨٣ .

(٢) سورة الزمر : آية ٩ .

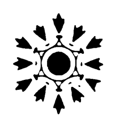
(٣) سورة آل عمران : آية ١٩١ .

الحيواني ، إنّما هو كي لا تصبح إنساناً غير مسؤول ، فعاقبة إنسان كهذا هي الحيوانيّة (في عالم الملكوت) .

فكل من كانت الآخرة مهمّة عنده ، فذلك يظهر في حال الغضب والشهوة ؛ كما أنّ من كان لا يلتفت إلى آخرته ، فإنّ لا مسؤوليته تُعرف عند الغضب والشهوة كذلك ؛ فكل همّه الحصول على المقام الرفيع في الدنيا ، أما وأنّ آخرته ليست مهمّة عنده ، فهو :

« في الحرص وجموح الرغبة والشهوة ، مجرّد قزم » ! .

وبالمناسبة ، فغنيّ عن القول : إنّ القصاص ، وكذلك إجراء الحدود يجب أن يُقاما في محكمة الحاكم ، وبحكمه ، وإلّا ساد الهرج والمرج ؛ لذلك فلا يجوز لمن وقع به ظلم أن يقتصّ من ظالمه بنفسه ، بل عليه مراجعة حاكم الشرع والمحاكم الإسلاميّة ، كي يأخذ عن طريقهما حقّه .



البحث الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم

الشهوة سبب لاستمرار الحياة والنسل

الشهوة والغضب قوّتان أودعهما الله عزّ وجل تكويناً في الإنسان بقدرته القاهرة ، واستمرار حياة ابن آدم مرتبط بهاتين القوّتين ؛ فالشهوة لجلب المنفعة ، والغضب لدفع المضرّة ، فإن لم تكن قوة الشهوة موجودة لما سعى الإنسان وراء ما يحقّق استمراره .

فشهوة البطن لو لم توجد ، لما وُجد الميل إلى الطعام لدى الإنسان ، ولما بذل هذا القدر من الجهد للحصول عليه ، فإذا لم يتلقّ الجسم غذاءه ، تلاشى وزال ، فبفضل شهوة البطن إذاً ، يتحمّل الإنسان المشقة ، فيعوّض ما يتحلّل من جسمه ، وإن لم يفعل مات .

والشهوة الجنسيّة لازمة كذلك لبقاء النسل ، فلو لم توجد الغريزة الجنسيّة لما رضي الإنسان بمشقّة الزواج ومسؤوليّته ، ذلك أنّ الحياة الزوجية تختزن المصاعب والمتاعب ، الأمر الذي يستلزم وجود داع أو دافع قويّ يدفع إليها ، وذلك هو ضغط الشهوة الجنسيّة التي فيها بقاء النسل ؛ فأصل الشهوة إذاً ، من مقتضيات البقاء ولوازم الحياة الماديّة للإنسان .

التقدّم المعنوي يكمن في الغضب والشهوة أيضاً

أمّا بالنسبة للغضب ، فهو لو لم يوجد في الإنسان كذلك ، ولم يكن للتجاوز على ماله أو روحه أو شرفه أثر عنده ، لاضطرب نظام الحياة الاجتماعي ، ولفعل كلٌّ ما يشاء نحو الغير دون رادع ، فلا مَن يحفظ ماله ، أو يرعى شرفه ، أو يذود عن روحه ؛ فأصل الغضب إذاً ، لازم للإنسان كي يقف في وجه الأضرار المصوّبة إليه .

غير أنّ هذه الشهوة وهذا الغضب ، القوّتان اللتان هما من مستلزمات حياة ابن آدم ، يرتبط بهما من ناحية أخرى وضعه المعنويّ والأخروي ، فأن يكون من أهل الدين أمر يرتبط كذلك بهاتين القوّتين ، وعليه أن يراعي بهما حدّ الوسط والاعتدال ، ويحذر الإفراط بهما أو التفريط ، فكلاهما خطأ .

والعقل والشرع هما الواسطة لتحديد الحدّ الوسط ، فعقل كلّ إنسان ووجدانه حين يبلغ حدّ الرشد والتمييز ، والشرع الإسلامي المقدس ، قد عيّنا الحدّ الوسط في مواقع الشهوة والغضب ، ووضعا له أحكاماً وإرشادات .

الإفراط والتفريط في الغضب والشهوة ، مهلكان

إذا تجاوز الإنسان الحدّ ، فوقع في الإفراط في الشهوة والغضب ، أو سار في طريق التفريط ، فقد انحطّ إلى درجة هي دون الحيوان .

فالحدّ الوسط في هاتين القوتين هو الصراط المستقيم ، قال تعالى :

﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ، ولا تتّبعوا السبل فتَفرَّقَ بكم عن سبيله ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٥٣ .

فصراط القيامة أيضاً مرتبط بوضعه في هذا العالم ، فمن تجاوز حدّ الوسط فوقع في الإفراط أو التفريط في هذا العالم ، فسيسقط غداً يوم القيامة عن الصراط ؛ وإن أشكال الفساد والمتاعب التي تواجه الإنسان في هذه الحياة أيضاً ، يعود غالبها إلى تقصيره ، إذا ابتلي بالإفراط والتفريط فيها :

﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كَسَبت أيديكم ، ويعفو عن كثير ﴾[١] .

الحد الوسط في الأكل ، عدم الإسراف

إذا ما روعي الحدّ الوسط بالنسبة لشهوة البطن ، سلم مزاج الإنسان ، وقلّت متاعب الجسد وأضراره ، وذلك بأن يلتزم حدّ الكفاية في مأكله ومشربه ، كمّاً وكيفاً ، وأوامر القرآن المجيد على هذا الصعيد تقول :

﴿ وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، إنّه لا يحبّ المسرفين ﴾[٢] .

وعن أمير المؤمنين (ع) قول بهذا المضمون يوصي بأن : لا تأكل شيئاً ما لم تحسّ بالجوع ، وارفع يدك عن الطعام وفي نفسك ميل إليه ؛ فإذا ما أكل الإنسان وهو شبعان ابتلي بسوء الهضم ، بل هو أحياناً يتعرّض للخطر ؛ وهذه هي حال الإفراط ، أمّا التفريط فأن يهمل الإنسان غذاءه ، كأن يكتفي بوقعة كل أربع وعشرين ساعة ، فهذا تفريط ، وقد ورد الأمر لمن شاء الصيام أن يأكل شيئاً في الليل ، ومن هنا كان الأكل في السحر أمراً مرسوماً ، وقد أحسن (سعدي) إذ قال في هذا الصدد :

---

(١) سورة الشورى : آية ٣٠ .

(٢) سورة الأعراف : آية ٣١ .

لا تـأكلَنْ أكلاً يفيض من الفم أو تمتنــع حتى تُصـاب بِمَغـرَم

فالإفراط إلى حدّ الامتلاء يسبّب عسر الهضم ، كما أنّ الإقلال إلى حدّ التفريط يصيب الجسم بـالضعف ، فلا يستعيض بـالغذاء عـمّا تحلّل منه ، ومن هنا قيل : « المعدة بيت الداء » .

هذا من حيث الكميّة ، أما من حيث الكيفيّة :

فالمائدة الحافلة بأنواع الطعام ، حافلة بالأمراض

ليس الميـل إلى الـترف والتعلّق بـأنـواع مختـارة من المـآكــل أمـراً محمـوداً ، ويحسن أن يرضى الإنسـان بما يقـدَّم له من مـأكل ؛ ذلـك أنّ الحرص على تناول ألوان مختلفة من الطعام مدعـاة للضرر ، فهو يتخيّـل أنّه بتناوله هذه الأنواع كلّها في وقعة واحدة ، إنّما يُقيت جسده ويقوّيه ، والحـال أنّ الأمر عـلى النقيض من ذلـك ، فـالإكثـار من أنـواع الحلوى مثلاً ، يزيد من فرص الإصابة بالأمراض السكريّة ، وقس على ذلك .

فمن درج عـلى الترف في مـأكله سـاقـه ذلـك إلى بـذل الجهـد في الحصـول على المـال الكثير الـلازم ، مما قـد يضطرّه للوقـوع في الخيـانـة والجريمة لإشباع رغبات بطنه ؛ أمّـا إذا رضي بما ينـاله من مـأكل لم يكن للترف فيـه أهميّة عنـده ، ولاستطاع مقـاومة هـوى نفسه ، وردعهـا عن الوقوع في ما لا تُحمد عقباه .

ولنا في أبي ذرّ (رض) وترفّعه عن عطايا معاوية ، ورفضه لأكياس المال ترسل إليه ، وقناعته بخبز الشعير في مأكله ، خير مثال .

والحق أن من قنع كان كريماً عزيزاً : « عـزّ من قنع » ، وكـان في منأى عن تجاهل الحلال والحـرام ، وإن أكثر النـاس الذين يحـرصون في بيعهم وشرائهم إنّما يستقون من نبع الحرص والطمع .

إذاً ، فالإفراط والتفريط في شهوة البـطن ، يكونـان بتجاوز الحـد

الطبيعي اللازم لسلامة البدن ، وتجاهل الحد الوسط الذي يتّفق مع حاجة البدن كمّاً وكيفاً .

الاعتدال ضروري في الشهوة الجنسيّة أيضاً

كما ينبغي في الشهوة الأخرى ، أي الشهوة الجنسيّة ، وإشباع غريزة السكن إلى الجنس الآخر ، ينبغي مراعاة الحدّ الوسط والاعتدال ؛ وهذا لا يعني بالطبع الانصراف عن الزواج ، فهو أمر غير مستحسن ، وقد ورد النهي عنه بشدّة في الشرع المقدس ، فعن رسول الله (ص) قوله :

« النكاح سنّتي ، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي » .

فالانصراف كليّاً عن الزواج تفريط ، والله عزّ وجلّ إنّما أودع الشهوة الجنسيّة في الإنسان كي يعمل على التناسل ؛ وقد ورد في هذا الصدد أيضاً حديث عن رسول الله (ص) إذ قال :

« تناكحوا ، تناسلوا فتكثروا ؛ فإنّي أباهي بكم الأمم يوم القيامة ؛ ولو بالقسط » .

فالإكثار من النسل مطلوب إذاً .

والإفراط خطأ أيضاً ، فكيف بمن لا يستطيع تسيير حياته مع امرأة واحدة ، يتطلّع إلى تجديد فراشه ؟ ألا يوقع نفسه وغيره ـ في هذه الحال ـ في المتاعب ؟! كما أنّ الإفراط في ممارسة الجنس يوجب الوقوع في أمراض مختلفة ، كما يسبب الضعف المفرط ، ويكون سبباً في قصر الأعمار .

الحد الوسط في الزواج ، نسبي

ينبغي في الزواج مراعاة الحدّ الوسط في دفع الشهوة الجنسيّة ،

طبقاً لأوامر الشرع ، التي أتت مطابقة للطبيعة والغريزة الإنسانية في ذلك ، وأن تتناسب ممارسة العمل الجنسي مع مزاج الجسم وقدرته ، لدفع الشهوة ، ونرى هنا أنّ الأمزجة والقدرات الجنسيّة عند الناس ليست واحدة ، ويختلف الحدّ الوسط للمواقعة باختلاف الأفراد ، فمنهم من تكفيهم مرة واحدة في الأسبوع ، أو مرّتان ، أو مرّة واحدة كل أسبوعين ، أو غير ذلك .

تشكيل الأسرة والبركة المعنويّة فيه

يتبين ممّا تقدّم أن تشكيل الأسرة ضروري للتربية الروحيّة للإنسان ، ففي تحمّل الإنسان لمتاعب الأسرة وتربية الأبناء يكمن التكامل ، وكما سبقت الإشارة ، فالشرع أتى في هذا الأمر طبقاً للطبيعة والغريزة ، فمن سلك فيه سبيل الإفراط أو التفريط فقد انحرف عن أوامر الشرع ، وابتلى نفسه بما لا يُحمد من متاعب روحيّة وبدنيّة ، وحُرم من بركات الحياة العائلية ، ومن التكامل المعنويّ الذي أودعه الله عزّ وجلّ في هذا الأمر .

« لا تَظلِمون ولا تُظلَمون »

للغضب أيضاً حدٌّ وسط بين الإفراط والتفريط ، والحدّ الوسط في الغضب هو المقدار اللازم والضروري للكمال الإنساني .

فحين يقع مال إنسان أو شرفه أو روحه موقع تهديد ، فالأمر هنا لا يحتمل اللامبالاة ، والغضب هنا صحيح تماماً ؛ فالمال الذي جمعتَه من طريق سليمة ، لن تسمح ـ جهد طاقتك ـ لأحد أن يسلبه منك ، أو شرفك ، أو روحك ، أو . . .

القرآن المجيد يقول : ﴿ . . **لا تَظلِمون ، ولا تُظلَمون** ﴾[1] ، لا

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٧٩ .

تصفع أحداً ، ولا تدع أحداً يصفعك دون مبرّر .

تُنقل عن الإنجيل عبارة ، لا أعتقد بوجه من الوجوه أنّها من وحي السماء ، ولا شكّ أنّ التوراة والإنجيل قد تعرّضا للتحريف ، وأنّ الأيدي لعبت بهما ، أيدي الصناعة ؛ ينقلون عن عيسى (ع) قوله :

« من ضربك على خدّك الأيمن ، فأدرْ له خدّك الأيسر » !! .

وهذا خلاف للقسط والعدل ، وحتى نقيض للطبيعة الإنسانيّة ؛ لا تقتل ، ولا تدعهم يقتلونك ؛ لا تضرب ، ولا تسمح بأن تُضرَب ؛ لا تشنّ حرباً دون مبرّر ، ولا تقبل بالحرب عليك ؛ لا تقبل ـ بهذا المعنى ـ بأيّ تجاوز ، فسكوت الأمة الإسلامية مثلاً ، عن الحروب المفروضة التي تُشنّ عليها ، مخالف لأوامر الشرع ، وللطبيعة البشريّة ، فمن لم يشرع بالحرب ، لا يمكن تحميله صلحاً مفروضاً ، بل عليه أن يتصرّف وفقاً لأوامر الشرع المقدّس ، التي تقول :

﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا** ﴾[1] .

لا أن نرضخ ونستسلم للعدوان ، فنحن مهما نزل بنا من ضربات ، ومهما احتلت مدننا وأراضينا ، ومهما تشرّدنا، هل يمكن أن نسلّم ونتوقّف عن الدفاع؟ بل هنا موطن الغضب ، هنا يكون الحدّ الوسط الذي أشرت إليه .

الأموات الأحياء هم اللامبالون

فمن كان غير مبالٍ ، يقول : حسناً ، لقد أتوا ؟ فليأتوا ! سرقوا ؟ فليسرقوا ! قتلوا ؟ فليقتلوا ! . . إن أفراداً كهؤلاء يصدق عليهم قول أمير المؤمنين (ع) ، فبعد أن يعدّد مراتب النهي عن المنكر والناهين عنه يقول :

---

(١) سورة البقرة : آية ١٩٠ .

« . . . ومنهم تاركٌ لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده ، فذلك ميّت بين الأحياء »[1] .

فمن لا يواجه الظلم والمنكر بالغضب ، لا يصح أن يسمّى إنساناً حيّاً ، وهل أقلّ من الغضب في القلب ؟! أمّا أن يكون لا مبالياً ، ويكتفي برفع الشعارات فقط ، فإنّما هو ظهير لأعداء الأمة .

لقد تحدثنا عن الإفراط والتفريط في الغضب فيما تقدم ؛ فالتفريط هو موقف اللامبالاة أمام التجاوز على المال والنفس والشرف والكرامة ، والإفراط هو التشدّد غير المبرر تجاه سلوك أو تصرّف لا يستدعي الشدّة ، أو إذا زادت الشدّة عن الحدّ ، فينبغي الحذر من هذين الأمرين (الغضب في غير محلّه ، والغضب الزائد عن حدّه) ، وقد أوردت أمثلة عنهما في البحث السابق فلا تنسوها ، وقد ذكرت على الخصوص ضرورة الحذر من الغضب غير المبرر ، ويندرج معه الغضب الناشىء عمّا يخالف التوقّع ، إذ ننتظر من الغير أحسن معاملة ، فلا نلقى ما توقّعناه ، فنغضب ، كأن ينتظر أحدنا أن يقف له الجميع إذا ورد محفلاً ، وأن يلقى الإجلال منهم ، فإذا ما تخلّف واحد أو اثنان منهم عن الوقوف عراه الغضب ، حتى أنّه يضمر لهما الحقد حيناً ، فما معنى هذا التوقّع الذي توقّعه منذ البداية ؟! .

النبي (ص) يأبى الإجلال

توقع الإجلال والاحترام من الناس خطأ لا يحسن وجوده عند ابن آدم ، فهذا رسول الله (ص) ، الرجل الأول في عالم الوجود عظمة ومقاماً ، كان إذا ورد مجلساً ، ووقف جميع الحضور احتراماً له ، أبى ذلك ، وأعرب عن عدم رضاه .

---

(١) وسائل الشيعة ، الأمر بالمعروف ، باب ٣ .

وهذا يعني أنّ النبي (ص) لم يكن ينتظر الإجلال من الآخرين ، إذ لم يكن يرى نفسه أفضل منهم ، وفي حين أنّ واجب الأمة احترامه بالطبع ، وتقديم الإجلال الكبير لمقامه الشامخ ، فهو إنّما يريدهم أن يفهموا أنّ الامتياز على الآخرين وتوقّع الاحترام منهم ، توقّعٌ غير سليم ، وهو لا يرى لنفسه امتيازاً عن أمته ، بل يرى نفسه خادماً لهم ، ولا ينتظر منهم جزاء على خدمته ، فعمله لله ، وجزاؤه لذلك على الله :

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى ﴾[1] .

كما أنّ الاحترام والمودّة التي أُمر بها لذوي قرباه إنّما هي لنفع المسلمين أنفسهم :

﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إنْ أجريَ إلاّ على الله ﴾[2] .

إن لم تنزل بك إهانة ، فكن سعيداً !

لذا ، فيا أيّها الروحانيون المحترمون ، ويا أيّها الطلاب الأعزّاء ، علينا أن ننهج نهج نبيّنا (ص) ونترسّم خطاه .

يقول أحد الأجلّاء : على الواحد من أهل العلم ، إذا ما خرج من بيته ، أن يتوقّع أن يُرمى بحجر ، وأن يُهان ، فإذا لم يصبه شيء من هذا فليكن شاكراً ! لا أن يتوقع الاحترام والإجلال وتقبيل اليد ! .

وأنتم كذلك ، عليكم السير على خطى نبيّكم ، فقد قرأتم وسمعتم كم نزل به من الإهانات وصنوف العذاب ، وكم رُمي بالعظام وبالحجارة ، وقُذف بأحشاء الإبل ، ونُثر التراب على رأسه ووجهه .

---

(١) سورة الشورى : آية ٢٣ .

(٢) سورة سبأ : آية ٤٧ .

فما بالنا أنا وأنتم نقول : نحن علماء وسادة ، وعلى الجميع احترامنا ، فإن لم يفعلوا عرانا الضيق والغضب ؟ إنّ أنواع القهر وأشكال الحقد إنّما تنشأ طبقاً لميولٍ وتوقّعاتٍ لم تتحقّق .

لم يكن سلوك النبي والأئمة أسيراً للتوقّع

لا يحسن بكم أن تتوقّعوا الخدمات من الناس ، بل عليكم أن تكونوا لهم خدماً ؛ فلا امتياز لأحد على أحد ، وهكذا كان سلوك النبي (ص) ، وسلوك الأئمة الأطهار (ع) ، فاتّبعوه .

روي أنّه (ص) كان في سفر ، فأمر بإصلاح شاة ، فقال رجل : يا رسول الله ، عليّ ذبحها ؛ وقال الآخر : عليّ سلخها ؛ وقال آخر عليّ طبخها .

فقال (ص) : وعليّ جمع الحطب .

فقالوا : يا رسول الله ، نحن نكفيك .

فقال : « قد علمت أنّكم تكفوني ، ولكن أكره أن أتميّز عليكم ؛ فإنّ الله يكره من عبد أن يراه متميّزاً بين أصحابه » .

وقام فجمع الحطب[1] .

وعن جعفر بن محمد الصادق (ع) قال :

« كان عليّ بن الحسين (ع) لا يسافر إلاّ مع رفقة لا يعرفونه ، ويشرط عليهم أن يكون من خدّام الرفقة فيما يحتاجون إليه .

فسافر مرّة مع قوم ، فرآه رجل فعرفه ، فقال لهم : أتدرون من هذا ؟ قالوا : لا ، قال : هذا عليّ بن الحسين (ع) .

---

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٤١٥ .

فوثبوا إليه ، فقبّلوا يديه ورجليه ، فقالوا :

يابن رسول الله ، أردت أن تصلينا نار جهنّم ! لو بدرت منّا إليك يد أو لسان ، أما كنّا قد هلكنا آخر الدهر ؟ فما الذي حملك على هذا ؟ .

فقال (ع) : إنّي سافرت مرّة مع قوم يعرفونني ، فأعطوني برسول الله (ص) ما لا أستحقّ ، فأخاف أن تعطوني مثل ذلك ، فصار كتمان أمري أحبّ إليّ »[1] .

بين الرضا (ع) ورجل لا يعرفه ، في الحمام

ورد في كتاب (المحجّة البيضاء) عن أحوال الرضا (ع) أنّه حين كان في خراسان ، وكانت ولاية العهد قد أسندت إليه ، دخل حمّاماً ، وكان قد سبقه إليه رجل لا يعرفه ، فبادر الإمامَ (ع) بقوله :

أيّها الرجل ، هلاّ فركت لي ظهري بالكيس ؟ .

قال : نعم .

ثم أخذ الكيس وراح يفرك ظهر الرجل ، وفي هذه الأثناء دخل الحمّاميّ ، وأراد لوم الرجل ، لكنّ الإمام أمره بإشارة منه أن يسكت ، فلا يعرّف الرجل به !! .

ليس علينا أن نتوقّع السلام والاحترام

الغرض هو أن نحذر التوقّعات ، وخاصّة أهل العلم منّا ، فعليهم أن يقلّلوا من توقعاتهم ، وأن لا ينتظروا أن يقوم الناس على خدمتهم ، وأن لا يكونوا كالأطفال في انتظارهم لما يقدّمه الآخرون

---

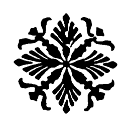
(١) سفينة البحار ج ١ ص ٣٨٢ .

(واجب الناس بالطبع هو في محلّه ، فعليهم احترامهم وتشجيعهم ؛ أمّا حديثنا فيدور حول انتظارنا للاحترام من النـاس ، فإن لم يفعلوا أخـذنا الغضب وعدم الرضى) ! .

ليس لنـا مثلاً أن نتـوقّع السـلام من الآخرين ، بـل علينـا أن لا نتخلّى عن سلوك رسول الله (ص) إذ كان يبدأ غيره بالسـلام ، وقد أثـر عنه قوله ما مؤدّاه :

ثلاث لا أدعهنّ ما حييت : الابتداء بالسلام على الصغـير والكبير (والثانية والثالثة : جلوسـه على الحضيض ، وأن يـردف خلفه من كـان ماشياً وهو راكب) .

إذاً ، فحـديثنا اليـوم كان عن الغضب في غـير محلّه ، كـالغضب عند صدور أمور غير اختيارية من الغـير ، حيث لا يتوفّـر فيها قصـد أو غرض ، وكذلك الغضب عند وقوع ما يخالف التوقّع .



البحث التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

الشهوة والغضب يجب أن يحكمهما العقل والشرع

تقدّم القول : إنّ الله عزّ وجل أودع في الإنسان ببالغ حكمته قوّتين : قوّة الشهوة ، وقوّة الغضب ؛ فإن حكمت هاتين القوّتين قوّةٌ ثالثة ، هي العقل ، فاز الإنسان بالسعادة ، وأمن في حياة دنياه الطيّبة ، وحياة أخراه الباقية .

فلو تحكّم العقل بهاتين القوّتين ، فحال بينهما وبين الإفراط أو التفريط ، وألزمهما حدّ الاعتدال طبقاً لحكم الشرع ، وجرياً على إرشاد الأنبياء ، لبلغ الإنسان مقام الكمال ، وإلّا ففي طريق الإفراط والتفريط يكمن الضياع والسقوط عن عالم الإنسانية إلى عالم الحيوانية ، وفيه الانحطاط والضلال ، على قول القرآن المجيد إذ قال : « بل هم أضلّ » ، وأحقر من الحيوان .

المنافع الماديّة والمعنويّة من المآكل

سبقت الإشارة إجمالاً إلى الإفراط والتفريط في شهوة البطن ، فالتفريط يكون بحرمان الجسم كلّياً من المواد الغذائية ، وعدم الانتفاع

أصلاً بالطيبات التي خلقها الله لتعويض الجسم عمّا يتحلّل منه ، ممّا يؤدي به إلى الهلاك ؛ بل على الإنسان فوق ذلك أن ينتفع ممّا في تلك الطيبات من منافع صوريّة ومعنويّة ؛ فالاستفادة الصوريّة تعني أن ينتفع من حلّها وطهارتها ، إلى جانب نفعها المعنوي ، ذلك أنّها تحمل ذرّة من الجمال الإلهي موزّعة فيها ، فهذه الحلاوة في ثمار النبات إنّما هي قطرة مما في خزائنه جلّ وعلا ، قال تعالى :

﴿ وإنْ من شيء إلاّ عندنا خزائنه ، وما ننزّله إلاّ بقَدَرٍ معلوم ﴾[1] .

فعلى ابن آدم أن يحسّ بالميل إلى تلك الثمار الحلوة ، وأن يتوجّه إلى صانعها ، فيرى أيّ قدرة وحكمة تلك التي أخرجت من ماء وتراب تلك الألوان المختلفة من الثمار ، في حين أنّها تُسقى بماء واحد ، وأن يشكر الله على صنعه ؛ يقول عزّ من قائل :

﴿ وفي الأرض قطعٌ متجاورات ، وجنّاتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيل صنوانٌ وغير صنوان ، يُسقى بماء واحد ﴾[2] .

وعليه أن يحسّ بالمحبّة أكثر للإله الذي قدّر له الانتفاع بهذه اللذائذ ، والذي أعطاه ملكة الذوق يتذوّقها بها ، ويشكر الله ، فإذا لم ينتفع الإنسان من هذه الطيّبات فقد حرم منها نفسه ، كما حُرم من فوائدها الصوريّة والمعنويّة .

عبادة البطن وأكل الغفلة

الإفراط في شهوة البطن يعني عبادة البطن والإسراف في الأكل ، والجري وراء الرفاه المحض ، دون تبصّر بالغرض من الأكل ،

---

(١) سورة الحجر : آية ٢١ .

(٢) سورة الرعد : آية ٤ .

كالحيوانات تماماً ، التي لا يعنيها من الأكل سوى مـلء البطون[1] . ولا شيء غيره .

الإفراط في الكمّ . أي أن يأكل الإنسان مـا يفوق الحـدّ ، أمّا في الكيف ، فـأن يأكـل من أنواع المـآكل غـير ملتفت إلى ما ينفـع بدنـه أو يضرّه ، غافلاً عمّا يغذّي روحه .

الأكل بذكر الله ومعرفة حقّ المنعم

على الإنسان إذا جلس إلى المائدة أن يتوجّه إلى المنعم جلّ وعلا ، فالإسلام يأمر بقول « باسم الله » عند كلّ لقمة ، قال تعالى :

﴿ ولا تأكلوا ممّا لم يُذكَر اسم الله عليه ﴾[2] .

المرحوم السيد ابن طاوس يعمل بهذه الآيـة في كلّ نـوع من أنواع المـآكل ، رغم أنّ مـورد وجوبهـا في الفقه هـو عند ذبـح الحيوان وقـطع رأسه ؛ حيث يجب حتماً ذكـر اسم الله عليه بـالقول : « بـاسم الله » ؛ ولو تُرك الذكر عمداً ، اعتبر الحيوان ميتة محرّمة .

لكنّ السيـد عليه الـرحمة ، كـان يلتزم هـذا الأمـر في كـل طعـام يـطعمه ، في اللبن إذا استُحلب من ضرع الحيوان مثلاً ، فـإذا لم يذكـر اسم الله عنـد الشروع في الاستحلاب كـان يمتنع عن شربـه ؛ أو الخبـز عند وضعه في التنور ، فكان لا يأكل منه ما لم يذكر اسم الله عليه .

فالعبد العـارف بالله هـو من يأكـل بذكـر الله المنعم ، وليس عند الأكل فحسب ، بل عند كل نعمة ينتفع بهـا ، فهو لا يغفـل عن واهب النعم .

---

(١) ﴿ يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ سورة محمد : آية ١٢ .

(٢) سورة الأنعام : آية ١٢١ .

الاعتدال في الزواج وفي الغضب

كما تقدّم القول : فإنّ التفـريط بالنسبـة للشهوة الجنسيـة يكون في عـدم الزواج أصـلاً ، وهذا خـلاف الطبيعـة وللخلقة ، ذلـك أنّ المرأة والرجل خلقا كي يسكن أحدهما إلى الآخر ويأنس به ، ويشـترك معه في تشكيـل الأسرة ، حفظاً لبقـاء النسل ؛ كـما أنّ الإفراط فيهـا إن تجـاوز الحد ، كان فيه مضرّة .

وقد تقدّم كذلك شرح لموضوع التفـريط في الغضب ، ويتمثّل في لامبالاة الإنسان أمام التجاوزات التي تقع عليه،فهو لا يبدي أي اهتـمام عند التعرّض لماله أو روحه أو كرامتـه أو شرفه ، فشخص كهـذا لا يهتم إذا رأى منكراً يرتكب أمامه ، كما لا يمد يد العون إلى مظلوم على ظالم ، ولا يقف في وجه الظلم ، ولا يبالي بما يقع عليه من ظلم .

العابد الذي ابتلعته الأرض

يروى أنّ عابداً كان مشغولاً بالصلاة حين أمسك طفلان بديك ، وراحا يعذّبانه وينزعان ريشه ، غير أنّ العابد لم يلتفت لما كانا يفعلان ، بل راح يطيل صلاته عامداً ، حتى قضى الطفـلان على الـديك أخيـراً ؛ أمّا العابد ، فلأنه لم يستجب لاستغاثة الديك ، ولم يسارع إلى نجدته ، بل أفرط فيما ظنّه عبادة ، فقد ابتلعته الأرض .

فشاهدنا هـو الإفراط، وهو موضوع بحثنا، وما ينبغي على العموم معـرفته هـو نوع الإفـراط وبماذا يكـون ؛ فالإفـراط في الغضب يـوجب خسران صـاحبه لـدنياه ولآخـرته ، لـذا فعلينا معـرفته ، وأن نضـع مـا عرفناه موضع التطبيق بنحو أفضل .

النبي (ص) لم يكن يغضب لنفسه أبداً

الإفراط في الغضب يكون بحسب منشئه وكيفيّته ، أمّا الإفراط في

المنشأ فهو حين يغضب ابن آدم غضباً في غير موضعه ، حيث لا يجيز العقل والشرع هذا الغضب ؛ وسبق أن مثّلته بالغضب عند أمور غير اختياريّة ، فهو خلاف للعقل والشرعٍ ، كذلك الغضب عند وقوع ما يخالف التوقّعات ؛ فلماذا التوقّع أصلاً ؟ حتى إذا ما وقع ما يخالف الميل أصبنا بالعصبيّة ؟! .

يُذكر في أحوال رسول الله (ص) هذا القول : « وكان (ص) إذا غضب ، لا يغضب لنفسه » ؛ كان إذا رأى ما يخالف هواه لم يغضب ، ذلك أنّ غضبه إنّما كان لله ، كان يغضب للكفر والفساد والمعاصي ، وليس لما يخالف ميل نفسه .

تعامل علي (ع) مع اللئيم ، ومع عمرو

وكان سلوك أئمتنا (ع) كذلك ، وهناك بيت من الشعر يُنسب إلى أمير المؤمنين (ع) ، يقول فيه :

ولقد أمرّ على اللئيم يسبّني   فمضيت ثمّة ، قلت : لا يعنيني

لقد سمعتم كيف بصق عمرو بن عبد ودّ في وجهه الشريف أثناء صراعهما ، لكنّه (ع) لم يقض عليه في تلك اللحظة ، بل توقّف هنيهة ريثما زال غضبه ، ثم أجهز عليه ؛ وحين سئل فيما بعد عن السبب في توقفه ، أجاب بأنّه خشي أن يكون إجهازه عليه منبعثاً عن غضب شخصي ، الأمر الذي يُفسد عمله ؛ ذلك أن قتله يجب أن يكون في سبيل الله ! .

رسالة من شهيد

أُحضر قبل شهرٍ جثمان شهيد إلى شيراز ، وكان أخوه عازماً على التوجّه إلى جبهة القتال ، وفي الليلة التي سبقت رحيله إلى الجبهة ، رأى

أخاه في نومه ، فقال له : إن توجّهت إلى الجبهة غداً ، فلا يكن ذهابك بقصد الانتقام ! .

كم هو بالغ الدقّة ، المغزى الذي نستفيده من رسالة الشهيد هذه ! فالشهداء أولاً ، أحياء ، كما يخبرنا القرآن المجيد بقوله :

﴿ ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربّهم يُرزقون ﴾[1] .

إضافة إلى أنّ الشهداء يمتازون بالإحاطة ، أي إنّهم يقفون على ما يجري في هذا العالم ، ويفهمونه .

شهيد آخر ، يراه أخوه في نومه ، في الليلة التي أعقبت دفنه ، فيقول لأخيه الشهيد : إذاً ، فقد متّ يا أخي ! .

قال : لا ، أنا لم أمُت ! .

قال : كيف ، وقد دفنتك اليوم بنفسي ؟! .

فأجابه : أنت الميّت ، ولست أنا ! إنّك على خطأ يا أخي ، فأنا حيّ !!

وهذا عين الواقع ، فالشهيد الذي أوصى أخاه بأن لا يذهب إلى الجبهة بقصد الانتقام لمقتله ، إنّما يرمي إلى تحذير أخيه من أن يكون ذهابه على أساس أنّ الأعداء قتلوا أخي ، وسأنتقم لمقتله بقتل عددٍ منهم !! فذهابه لن يكون ـ والحال هذه ـ في سبيل الله ، في حين أنّ ذهابه يجب أن يكون من أجل الدفاع عن الإسلام والمسلمين ، وليس من أجل الانتقام ! .

فعلى المؤمنين أن يكونوا « أشدّاء على الكفّار » ، بسبب كفرهم ،

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٦٩ .

وليس بسبب آخر ، فيغدو الأمر - إذا ذاك - غضباً نفسانياً وليس رحمانياً .

حميّة الجاهلية والتعصّب القومي

من موارد الغضب غير المبرّر الحميّة الجاهلية ؛ الحميّة : من الحماية ، أي : الغضب لغرض نفسي وليس لمؤازرة الحقّ ، بل لمؤازرة الجهة التي ينتمي إليها الغاضب .

مثلاً : أحد ذوي قرباه يرتكب عملاً ما ، فيسارع إلى مساعدته ونصرته ، لأنّه قريبه ، في حين أنّ عليه أن ينصر المظلوم ، لا الظالم ، ولو كان ابنه .

يندفع بعض الناس إلى نصرة ذوي قرباهم انطلاقاً من العصبيّة القوميّة ، فيؤازرون بني قومهم ، حتى لو كانوا ظالمين ، وحجّتهم أنّهم ينصرون قومهم ؛ فلو كان طالب الحماية جاسوساً مثلاً ، فلا بدّ - في مفهومهم - من تحريره ، لأنّه من قومهم ! أمّا إن كان الجاسوس ينتمي إلى غيرهم ، فلا بدّ من إعدامه !! فالحقّ - في نظرهم - إلى جانب قومهم ، وليس في هذا ما يخالف القانون !!

فالنصرة يجب أن تكون في محلّها ، إلى جانب الحقّ ، أمّا نصرة من ليس على الحقّ ، باعتبار القربى والقوميّة ، فهي نصرة للباطل ، هي حميّة الجاهليّة ، وتوجب الهلاك .

حميّة الجاهلية توجب الهلاك

عن رسول الله (ص) ، قال :
ستّة يهلكون بستّ . . . إلى قال : « والعرب بالعصبيّة »(١) .

---

(١) الخصال للصدّوق .

فموضع بحثنا وشاهدنا هو قوله (ص) : « والعرب بالعصبيّة » ، كأن يرتكب أحد ذوي القربى جناية ، فنهرع إلى نصرته لأنّه من قومنا ! وهذه خصلة غير محمودة ، كانت منتشرة بين أعراب الجاهلية ، ولا تزال حتى الآن عند أناس لم يتأدّبوا بآداب الإسلام .

وعن رسول الله (ص) قوله أيضاً :

« من كان في قلبه مثقال حبّة خردل من عصبيّة ، بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية »[1] .

فمن يعلنون الحروب انطلاقاً من عصبيّتهم القومية ، إنّما هم مصداق قطعي لهذا الحديث .

وعنه (ص) حديث آخر ، يقول :

« من تَعصَّب أو تُعُصِّبَ له ، فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه »[2] .

كأن يبدر منك ظلم مثلاً ، فيتعصّب الآخرون لك ، ويطأون الحقّ بأقدامهم ، فتعصّبهم فيه الهلاك ، كما أنّك أنت نفسك ، ستفقد إيمانك ، ذلك أنّك كنت مبعث تعصّبهم لك دون حقّ ، وهذا خطر مهلك حقّاً ! .

التعصّب القوميّ خلاف للشرع المقدّس

كذلك يؤثر عن الإمام السجّاد (ع) قوله :

« العصبيّة التي يأثم عليها صاحبها ، أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين »[3] .

(١ ، ٢) تفسير نور الثقلين .

(٣) المصدر السابق .

أي إنّ من كـان من قومـه أو من ذوي قربـاه ، كان عـلى الحق ، مهما كان في الواقع ملوّثاً بالفساد !! .

كذلك نرى الآن بيننا جماعة من هؤلاء ، فكل من كان منهم فهو حسن ، وهم يدافعون عنه وينصرونه ، وهـذه هي « العصبيّة القـوميّة » التي أتينا على ذكر أشكال منهـا ، وهي خلاف لـرؤية الشرع الإسـلامي المقدس .

مودّة الأرحام والتعصّب أمران مختلفان

وبالمناسبة ، أورد هذه النكتـة : لا شكّ أنّ عـلى الإنسان أن يـودّ ذوي قرباه ، فهذه غريزة طبيعيّة أودعهـا الله في طينة الأفـراد ، وكذلـك فعليـه أن يودّ أصحابه وأرحامه ويساعدهم ؛ غير أنّ ما هو مذموم ، وما يجب الحذر منه ، هو أن ينصر قومه وأرحامه وأصحابه على الـظلم ؛ كما هو مضمون الحديث :

« التعصّب المذموم . . هو أن يحمي قومـه أو عشيرتـه أو أصحابـه في الظلم والباطل ، أو يلحّ في مذهب باطل أو ملّة بـاطلة لكونـه دينه أو دين آبائه أو عشيرته »[1] .

وعن الإمام الصادق (ع) قوله :

« ومن جنود الحق الإنصاف ، وضدّه الحميّة »

فلو صـدر عن ابنه ظلم ، فعليـه نصرة المظلوم ، ولـو نصره عـلى ابنه ، بل ولو نصره على نفسه ، فبهذا أوصانا القرآن المجيد بقوله :

﴿ **كونوا قوّامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم** ﴾[2] .

---

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ١٩٩ .

(٢) سورة النساء : آية ١٣٥ .

فمثلاً : وقع خلاف بين أحد أصحابك أو ذوي قرباك وبين آخر ، ومع معرفتك بأنّ الحقّ إلى جانب الخصم ، تشهد لصالح قريبك أو صاحبك ، وهذا خلاف للشرع وللإنصاف ، فعليك ـ وأنت تعلم من صاحب الحقّ ـ أن تأخذ جانب الحق ، وتشهد لصالح صاحبه ، ولو كان في شهادتك الضرر لصاحبك أو قريبك ، أو حتى نفسك .

ولا يقتصر هذا على الشهادة في محكمة أو أمام القضاء ، بل هو يشمل كلّ مورد يقتضيه ، فلا يحقّ للإنسان أن يجانب الحق لسبب شخصيّ مهما كان .

إنّهم يتعامَوْن عن الإسلام

أعرض فيما يلي نموذجاً : ففي غضون مدّة قصيرة انصرمت على قيام حكم الإسلام ، كم من خدمات جُلّى تحققت رغم كل المصاعب والعراقيل من قبيل الحصار الاقتصادي والحرب ، وما يتركانه من اضطراب في سير الأمور ، وعجز عن تلافي الأضرار ، مما استدعى بذل الجهود المضنية ليلاً ونهاراً ، حتى تسير الحياة سيرتها الطبيعيّة ، وكأنّ شيئاً لم يكن .

ففي هذا الوقت ينبري أعداء الإسلام والمنحرفون في تهجّمهم على ولاة الأمور ، وكأنهم لم يفعلوا شيئاً ، من تحقيق خدمات ، أو إصلاح عيوب ، وراحوا يكيلون التّهم جزافاً يريدون بذلك إضعاف البلاد ، وتقديمها لقمة سائغة للأعداء .

الإنصاف مقابل الحميّة الجاهليّة

عن الصادق (ع) قال :

« سيّد الأعمال ثلاثة[1] : إنصاف الناس من نفسك ، حتى لا

---

(١) وردت في أصول الكافي : « أشدّ الأعمال ثلاثة » .

ترضى بشيء إلاّ رضيت لهم مثله ؛ ومواساتك الأخ في المـال ؛ وذكر الله على كلّ حال »[1] .

فالإنسان إن لم يكن من أهل الإنصاف ، كان من الحيوان ؛ ذلك أنّه يتجاهـل الحق إذا رآه ، كما لـو صدر عن إنسـان صادق مثـلاً ، أمر يخالف ميلك ، فتجاهلت كل حقّ صدر عن هذا الرجل ، ولم تر سـوى الأمر الذي يخالف ميلك ، فتمسّكت به ، في حين لو كـان هذا الـرجل من قـومك ، وصـدر عنه أمـر يرضيـك ، سارعت إلى إعـلانه بـالطبـل والزمر ، ورحت تضخّمه أضعاف ما يستحقّه ، وتنسبه إلى قومك ، ولو كان ادّعاء باطلاً !! .

فعلى كلّ منّا أن ينوي بينه وبين الله أن لا يكون للحقّ متجاهلاً ، ولو صدر عن عدوّ له ، تماماً كما لو أنّه صدر عن فرد من قومه ، فهو لن يتجاهله .

فالإنصاف إذاً ، هو النقيض للحميّة الجاهلية ، والإنصاف هو أن يجري المرء وراء الحق ، وأن يغضب أمام الظلم والتجـاوز من أين أتى ، وبهذا يدفع عنه شائبة الغرض الشخصي .

* * *

---

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ٥٩٤ .

البحـث العاشـر

بسم الله الرحمن الرحيم

خـلاصة بحثنـا فيما يتعلّق بـالغضب ، أنّ الغضب صفـة طبيعيـة أودعهـا الله تعـالى في الإنسـان ، والعـدل فيـه لازم ومحمـود ، كـما أنّ الإفـراط والتفريط مـذمومـان ، وأنّ العدل في الغضب إنّمـا يكـون تجـاه الباطل والمنكر ، أمّا الغضب المذموم فهـو الغضب في غير محلّه ، وحـين يتجاوز الحدّ ، كمّاً وكيفاً .

أمّـا بحسب الكمّ والمـورد ، فهـو كـالغضب تجـاه أمـور غـير اختيـارية ، أو تجـاه توقّعـات لم تتحقّق ؛ ومنها الغضب عـلى المحسود ، كزميل المهنة مثلاً ، إذ يكون مورد حسد كلما فاز بمال أو مقام أو نعمة ، فيغضب زميله لـذلك ، ويتمنّى زوال هـذا المقام أو هـذه النعمة عنـه . وحديثنا اليوم سيدور حول الغضب الزائد عن الحدّ .

الغضب باللسان واليد والقلب يجب أن يكون محدوداً

إذا كان الغضب صحيحاً وفي محلّه ، لا ينبغي أن يتجـاوز الحدّ ، وإلاّ انقلب إلى غضب مذموم ؛ ففي مواجهة الباطل والمنكـر ينبغي أن يكون الغضب محدوداً أيضاً ، وصحيح أنّ الغضب في هذه الحال يكون باللسان وباليد والقلب ، ولكن . . . إلى أيّ حدّ ؟ .

سأورد لتبيان كلّ مرحلة من مراحل الغضب باللسان واليد والقلب مثالاً ، يتّضح معه المطلوب .

أولاً : الغضب الزائد عن الحدّ بالنسبة للسان : إذا وجّه أحدهم إهانة إليك ، فمقتضى غيرة المؤمن يدعوك إلى الغضب ، فإن استطعت أن تسيطر على غضبك وتسكت ، فهذا كمال لك عند الله تعالى ، ومصداق للآية الشريفة : « والكاظمين الغيظ » ، فالله عزّ وجلّ يمدح الأشخاص الذين يكظمون غيظهم .

دفع السيّئة بالحسنة

وإن استطعت فوق ذلك أن تنصح من أهانك عوضاً عن أن تسيء إليه بالقول ، وذلك بلسان حسن وخلق محمود ، ووجه منبسط ، تريد له الخير ، كأن تقول له مثلاً: أنت رجل محترم ؛ ومن الخسارة أن تنحدر بشخصك ونفسك ، ولعلّك لم تكن ملتفتاً إلى ما قلت ، فتكون بذلك قد قابلت إساءته بالإحسان ، وغدوت مصداقاً للآية الكريمة :

﴿ **ولا تستوي الحسنة ولا السيّئة** (أي واضح أنّ الإحسان والإساءة لا يستويان ، والدليل هو) **ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم** ﴾[1] .

لئن استطاع المسلم أن يقابل القول السيّيء بقول حسن ، والتصرف السيّيء بتصرّف حسن - (كأن تحتاج من أحد شيئاً فلا يلبّي حاجتك ، فإن احتاج هو منك شيئاً لبّيته ، أي أحسنت له إذ أساء إليك) - فإنّ العداوة والبغض سيزولان ، وينقلب العدوّ صديقاً ، بل وليّاً حميماً .

وهذا بالطبع لا يحسنه كلّ فرد منّا ، بل هو عمل أصحاب

---

(١) سورة فصّلت : آية ٣٤ .

الدرجات العالية من الإيمان ، ممّن أوتوا حظّاً وافياً من الخصال الحميدة ، كما تقول الآية التي بعدها :

﴿ وما يُلقّاها إلاّ الذين صبروا ، وما يُلقّاها إلاّ ذو حظّ عظيم ﴾[1] .

حقاً إنّه لأمر صعب ويحتاج إلى الصبر ، ويحتاج إلى قهر النفس وما تميل إليه .

الدفع بالأحسن مدعاة لخجل الخصم

إذا ذمّك إنسان ، فقابلت مذمّته بإحسان ، عاد ما قمت به إليك ، وقطفت لذّة العفو ، التي لا تقاس بلذّة الانتقام :

لئن عرفتم لذّة ترك اللذّة فلن تجيبوا طلب النفس اللذّة

فذلك الذي يتلقّى الفحش والإهانة من آخر ، لكنّه يقابلها بالإحسان ، سيشعر فيما بعد بالرضى .

كثير من الناس ، ولكي تبرد قلوبهم ، يردّون المسبّة بعشرٍ من أمثالها ، وماذا تكون النتيجة ؟ لا القلب يبرد ، ولا النفس ترضى ، بل لا يعقب ذلك سوى الضغينة والبغضاء والعداوة .

فإن شئتم السبيل القويم إلى ذلك ، فإليكموه ، إنّه السبيل الذي ترشد إليه الآية الشريفة ، فالحقّ أنّ من كظم غيظه ، وبادل الإساءة بالإحسان إلى خصمه يكن قد تصرّف تصرُّف الرجال ، فيبرد بذلك قلبه ، وترضى به نفسه ؛ أمّا الخصم ، فسيشعر بالخجل لا محالة ، ويندم على ما قدّمت يداه .

---

(١) سورة فصّلت : آية ٣٥ .

المقابلة بالمثل هي ما حدّده الشرع

إذا لقي إنسان ما يكره ، فأمامه طريق من ثلاث ، يختار إحداها : فهو إمّا أن يعفو ، ويختار السكوت أصلاً ، أو هو يدفع بالأحسن ، وهذه أفضل من الأولى ، وإما ـ إن لم يستطع ـ أن يسلك ثالثة السبل ، ويردّ بالمثل ، كما حدّد الشرع المقدّس .

أي أن يحصر الردّ بشخص الخصم فلا يعدوه إلى غيره ، فلو قال له : يا أحمق ، أجابه : أنت الأحمق ، فلا يتعداه إلى أمه أو أبيه أو أخيه مثلاً ؛ فهذا ليس من حقّه ، كما أنّه غير لائق .

يقول تعالى في محكم تنزيله :

﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتّقوا الله ﴾[١] .

بمثله لا أكثر ، فلو رددت شتيمة باثنتين فقد تجاوزت وأثمت .

أمّا في القذف ، فلا ردّ أبداً ، أي إن قذف شخص آخر بالزنى مثلاً أو قذف قريباً له ، فلا يجوز للمقذوف أن يردّ بالمثل ، بل باستطاعته أن ينال حقّه منه في المحكمة أمام قاضي الشرع ، وبعد أن يثبت عمليّة القذف ؛ يقام الحدّ على القاذف[٢] .

لذا فالخطر هنا أن يفلت اللسان في حال الغضب ، ويتفوّه بأكثر ممّا يجدر به ، فيتحمل المسؤولية أمام الله .

وفي الحال عينه ، فلا يصح أن تقابَل الإهانةُ بقول يبطن قذفاً أو كذباً أو تهمة ، فيخرج بصاحبه عن الميزان المرسوم .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٩٤ .

(٢) يرجع إلى كتابنا (الذنوب الكبيرة) ففيهُ بحث واف عن القذف .

واللسان يتحرّك بسهولة ، وتخرج منه ألسنة النار ، ولا يقف أمامه شيء سوى الخوف من الله .

لذا فإذا تلقّيت عدواناً باللسان فعليك أن تعفو ، أو تدفع بالتي هي أحسن ، أو ـ إذا ما اخترت الردّ ـ فاحذر أن يرتّب ما تقوله مسؤولية عليك ، كأن تقول لمن قذفك مثلاً : يا جاهل ، يا عديم الفهم .

الوقار والسكينة مقابل الحميّة الجاهليّة

نشير هنا إلى آية من سورة (الفتح) ، يقول تعالى :

﴿ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة ، حميّة الجاهلية** (وذلك حين أبوا أن يدرجوا في وثيقة صلح الحديبية كلمتي : باسم الله ، ورسول الله ، وأثاروا بذلك حميّة المؤمنين ، وتحرّكت غيرة الإيمان فيهم) **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى** (كلمة الإخلاص والمقام) ، **وكانوا أحقَّ بها** (من الآخرين) **وأهلها ، وكان الله بكلّ شيء عليماً** ﴾[1] .

كان المشركون والكفّار أسرى للغضب الشيطاني والحيواني ، وكانت قلوبهم طافحة بالحميّة الجاهليّة والتعصّب ، كما سبقت الإشارة ، تلك الحميّة التي كانت لدى الأعراب أكثر من غيرهم ، والتي هي موجبة لهلاكهم طبقاً للحديث المتقدّم ، فهي حماية للباطل والعصبيّة ، ويمتزج التعصّب القوميّ لديهم بالنخوة والغرور اللذين يدفعانهم إلى الدفاع عن باطلهم .

يقول : إذ جعل الكفار حميّة الجاهليّة والتعصّب في قلوبهم ، أنزل الله على نبيّه وعلى المؤمنين الطمأنينة والسكينة ، كي لا يثور غضبهم

---

(١) سورة الفتح : آية ٢٦ .

وتتحرك حميّتهم بالمقابل ، وتحاشياً للفساد المحتمل ، فألزمهم التقوى من الغضب في غير محلّه ، ودفعاً لهم عن تجاوز الحد ، والخروج عن جادّة التقوى .

صلح الرسول (ص) مع المشركين في الحديبية

بعد أن تمّ التوافق على عقد صلح الحديبية بين رسول الله (ص) وبين المشركين (وهو موضوع خارج عن نطاق بحثنا ، غير أنّه يشرح شأن نزول الآية الكريمة) ، شرعوا بكتابة وثيقة الصلح ، فكان سهيل بن عمرو ممثّلاً للمشركين في إبرام هذا العقد .

قال سهيل بن عمرو للرسول (ص) : اكتب بيننا وبينك كتاباً ؛ فدعا رسول الله (ص) علي بن أبي طالب (ع) ، فقال له : اكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

فقال سهيل : أمّا الرحمن ، فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب : باسمك اللهمّ ! .

فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلّا « بسم الله الرحمن الرحيم » .

فقال النبي (ص) : « اكتب : باسمك اللهمّ ، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله (ص) » .

فقال سهيل : لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله ! .

فقال النبي (ص) : « إنّي لرسول الله وإن كذّبتموني » ؛ ثم قال لعلي (ع) : « امح رسول الله » .

فقال : يا رسول الله ، إنّ يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوّة ! .

فأخذ رسول الله (ص) فمحاه ، ثمّ قال :

« اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهنّ الناس ، ويكفّ بعضهم عن بعض ؛ وعلى أنّه من قدم مكّة من أصحاب محمّد حاجّاً أو معتمراً ، أو يبتغي من فضل الله ، فهو آمن على دمه وماله ، فإن بيننا عيبة مكفوفة ؛ وأنه لا إسلال ولا إغلال ، وأنّه من أحبّ أن يدخل في عقد محمّد وعهده دخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

فتواثبت (خزاعة) فقالوا : نحن في عقد محمّد وعهده ؛ وتواثبت (بنو بكر) فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم ؛ فقال رسول الله (ص) : « على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف » .

فقال سهيل : والله ما تتحدّث العرب أنّا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب[1] .

العلماء خدمٌ للأمّة

أقول بالمناسبة لتلك الجماعات التي برزت برؤوسها في هذه الأيام ، وراحت تظهر جرأتها بفضل الحريّة التي قدّمتها لهم الجمهورية الإسلامية ، وقدّمتها دماء الشهداء ، فاستفادوا من تلك الحريّة أسوأ استفادة ، بتجاسرهم وجرأتهم على رجال الدين ، رافعي راية التغيير ، وحاملي لواء الإسلام ، وراحوا ينالون منهم ، يريدون إشعال نار الفتنة .

أقول لهم : ماذا فعل العلماء لهذه الأمة ؟ بل ماذا فعلوا لكم ؟ ما

(١) بحار الأنوار ج ٢٠ ص ٣٣٣ .

هو الجرم الذي ارتكبوه ؟ كلّ ما جنوه هو أنّهم حملوا على أكتافهم مسؤولية الأمة من قبل ومن بعد ؛ فما هو الفرق يا ترى ؟ وهل طلبوا مقاماً أو رئاسة ؟ .

إنّهم بضعة نفر ، قبلوا حمل المسؤولية ، والحق أنّ لهم علينا كل الشكر والعرفان ؛ فهم يبذلون أرواحهم ليل نهار في الدفاع عن الإسلام ، وفي مقابل كلّ هذا لا يلقون سوى السبّ والشتيمة ، ودون أي نفع ماديّ .

فعلى أولئك المخدوعين أن يفهموا بلسان الاستدلال أن العلماء هم خدمٌ لهذه الأمّة ، وليسوا طلّاب رئاسة أو استئثار .

نعود إلى بحثنا فنقول : إنّ الحميّة الجاهليّة لدى الكفّار والمشركين يجب أن تُقابل بالسكينة والوقار ، وهذا ما أنزله الله على رسوله وعلى المؤمنين ، وأمرهم بالتزام التقوى .

لا تتخلّوا عن الطمأنينة والسكينة

المؤمن هو من كانت كلمة التقوى جزءاً من روحه ، تسري تحت جلده وفي عروقه ؛ والمؤمن يعتقد بأنّ الله حاضر ناظر على الدوام ، وهو في حذر دائم ، فهو يسوس لسانه وعينيه ، ولا يغضب لهوى نفسه ، فإذا ما غضب فإنّما غضبه لله ، ومَن غضب لإهانة نزلت به ، فتلك هي الحميّة الجاهليّة .

فهذا سهيل بن عمرو ينزل الإهانة بشخص النبي (ص) ، لكن رسول الله (ص) صبر على الغضب وحلم ، وتلك سنة رسول الله (ص) تجاه الغضب الباطل ، فالسكينة لا تفارقه ، والتقوى ملازمة له ، وهو لا يغضب أمام الباطل غضباً شيطانياً أو نفسيّاً ؛ ذلك أنّ الوقار والسكينة ضروريّان تجاه أناس تأخذهم الحميّة الجاهلية ؛ والقرآن

المجيد يقول ضمن بيان صفات المؤمنين وعباد الرحمن :

﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾[1] .

فالسلام هو من السلم ، أي : لسنا جهلة مثلكم ، ولن نقابل جهلكم بالغضب ، لأنّنا مسلمون و« المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه » .

التجاوز عن الحدّ في الأعضاء

ثانياً : **الغضب الزائد عن الحد بالنسبة للأعضاء** : فإذا ما وجّه إليك أحدهم صفعة ، فعليك هنا أيضاً أن تعفو ، فالعفو أفضل كما يقول القرآن المجيد :

﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾[2] .

فلا تقل : لئن عفوت عنه ، زاده العفو جرأة ، فيعتدي على الآخرين كما اعتدى عليّ ؛ فقد ورد كثيراً فيما مضى أنّ جناة ندموا على ما فعلوا ، وتابوا ، وصلحت حالهم بسبب العفو ، فإذا ما كظم المرء غيظه وعفا ، خير من أن ينتقم ، ذلك أنّ عليه في تلك الحال أن يراعي المثل والتساوي في الردّ ، وهذا مشكل ، لذا فالعفو أقرب للتقوى .

اتّقوا الاعتداء الابتدائي

أذكّركم ـ بهذه المناسبة ـ بقول القرآن المجيد : **﴿ لا تَظلِمون ولا تُظلَمون ﴾**[3] ، أي لا تعتدوا ، ولا تضعوا أنفسكم موضعاً لاعتداء يقع عليكم ؛ وهذا يعود للاعتداء الابتدائي ، أي إذا أراد أحد أن

(١) سورة الفرقان : آية ٦٣ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٣٧ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٧٩ .

يضربك ، فلم يقل أحدٌ إنّ عليك أن تقدّم له نفسـك وتقول : هـاك ، فاضرب ! فلا حقّ لك أن تفعل هـذا ؛ أو أنّ أحدهم أراد قتلك ، فـلا يحقّ لـك أن تنتظر حتى يـأتيك ، فيقتلك بكـلّ راحـة ! فـالمرء في هـذه الحال ، إنّما يكون قاتل نفسه ، بقول أمير المؤمنين (ع) :

« إنّ المؤمن يمـوت كلّ ميتـة ، غير أنّـه لا يقتل نفسـه ! فمن قدر على حقن دمه ، ثمّ خلّى عمّن يقتله ، فهو قاتل نفسه »[1] .

ذلك أنّه لم يدفع القتل عن نفسه مـع أنّ ذلك بمقـدوره ، فانقلب قاتلاً لنفسه .

يقولون : من ضربـك فقد اعتـدى ، فإذا عفـوت بدلاً عن الـرد كان أفضل ؛ ففي العفو لذّة لا توجد في الانتقام .

جـاء في تفسـير الآيـة : « وأن تعفـوا أقـرب للتقـوى » في بـاب القصاص : من أصابه جرح ، فهو أمام ثلاثة خيارات : إمّا أن يعفـو ، وإمّـا أن يـأخـذ الـديـة ، وإمّـا أن يقتصّ ؛ والقصـاص يجب أن يقـام بحضور حاكم الشرع ، بعد تحديد مدى الجرح ، فإذا مـا زاد القصاص مقدار رأس إبرة ، استوجب الأمر تـدارك تلك الزيـادة ، كما جـرى مع (قنبر) مولى أمير المؤمنين (ع) ، فقد كان يقيم الحدّ على أحدهم فجلده جلدة زيادة عن الحد ، وذلك عن سهوٍ بالطبع ، فقضى الإمام (ع) بـأن يردّ المجلود الضربة لقنبر ، وبيده ، وهكذا كان ! .

لـذا ، فحيث إنّ في القصاص إشكـالاً مصدره العمـل بـالمثـل ، فالعفو أقرب للتقوى ؛ والعفو على أي حالٍ أفضل ، وإلّا فله أن يـأخذ الدية ، أمّا إن اختار القصاص ، فعليه مراعاة المثل ، كما تكرّر القول .

إذاً ، إذا صفعك أحدهم مـرّة ، فليس لك أن تصفعـه مرّتـين ،

---

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ٤٠٧ .

كما أنّ الكيفيّة لها حكمها ، فإذا ما خلّفت صفعته احمراراً ، فليس لـك أن تسبب له صفعتك اسوداداً ؛ فإذا ما وقع ذلك ، حقّت له الدية .

وهكذا ترون ما يترك الخـلافُ بيننا من إشكـال ، فالأفضـل لكلّ منا أن يمسك نفسه منذ البداية ، وأن تكون كلمة التقوى ملكة عنده .

تجاوز الحدّ في غضب القلب

ثالثاً : **الغضب الـزائد عن الحـدّ بالنسبـة للقلب** : إذا ظلم أحد أحداً ، فلا حقّ للمظلوم أن يضمر الحقد والبغضاء في قلبـه لمن ظلمه ، وأن ينقم عليه فيقبع على نار الحقد ينتظر موته ، ففي الانتـظار ضيق وألم يـلازمان المـرء عمره ؛ فعليـه كي لا يقع في ذلـك أن يختـار واحـداً من الخيارات الثلاثـة : العفو أو الـدية أو القصـاص ؛ وإلاّ فلا يحقّ لـه أن يضمـر الحقد والبغض في قلبـه ، فهذا هـو « إضمار السـوء » ، وإضـمار السوء من الذنوب .

لا تقولوا : هـذا ليس بمستطاع ، فعـلى المرء أن يحـول دون نفسه والوقوع في هـذه الذنـوب القلبيّة ، وذلـك بريـاضة النفس ، والتـدرّب المتدرّج والعمل بأوامر الشرع المقدس ؛ وقد شرحنـا ذلك بـالتفصيل في كتابنا « القلب السليم » ، فيحسن الرجوع إليه .



البحث الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحسد يذهب بسلامة الجسد

وصل بنا الكلام عن الغضب إلى الحديث عن الحقد والحسد ، ويحسن بدايةً أن نفهم معنى الحقد والحسد ، وأن نحفظ أنفسنا منه ، فهو مرض أسوأ من السرطان .

على الإنسان منذ البدء أن يحصّن نفسه ، فلا يبتلى بهذا البلاء المبيد ، ومنشأه هو الغضب الذي لا مبرّر له ، والذي تقدّمت أمثلة عنه ، ومنها مثل من سبقه زميله في العمل ، وتقدم عليه ، فغضب ، أو أن زميلاً له أصبح رئيساً له ، فأحزنه تقدُّمُه عليه ، في هذا الغضب يكمن الحقد ، فيبتلى صاحبه بالحسد ما دام حيّاً ، ويتمنّى زوال هذا المقام عنه ، ويرجو أن يرى سقوطه ، بل أن يرى زواله من الوجود ! وهذه الحالة من الحسد تأتي بالضرر للروح وللجسد ، وأمير المؤمنين (ع) يقول في هذا الصدد :

« العجب لغفلة الحسّاد عن سلامة الأجساد »![1] .

---

(١) نهج البلاغة .

والحق أنّ الحسد يذهب بسلامة الجسد ؛ كما يقول (ع) أيضاً :

« صحّة الجسد من قلّة الحسد »[1] .

فانتفاء الحسد ، أو قلّته ، من موجبات سلامة الجسد .

والسرّ الطبيعي في ذلك ، هو أنّ على الإنسان القيام بمئات الأعمال لضمان حسن العيش وسلامته ، ومنها رعاية الجسد وحفظ قواه ؛ فإذا ما أصيب بالحقد والحسد ، انصرف اهتمامه إلى محسوده ، وانشغلت به نفسه ، وعاش في همّ مقيم ، وتبرز لديه مظاهر النقصان ، الأمر الذي يترك تأثيره ، حتى على هضم الأغذية .

اصبر على حسد الحسود فإنّ صبرك قاتله
كالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

حريّة الروح وأثرها على هضم الغذاء

لا بدّ سمعتم ، أو حتى جرّبتم بأنفسكم أنّ الشخص الغاضب لا يحسّ بميل إلى الطعام ، فإذا ما تناول طعاماً دون ميلٍ إليه ، أو إذا ذكر أثناء الأكل ظروفاً مُرّة ، فإن طعامه يعسر هضمه ؛ وهناك مثل متداول بين الناس في هذا الصدد يقول : هذا الطعام كالسُّمّ بالنسبة لي ! أي هو غير مستساغ ؛ فابن آدم إذا كان يشعر بالنشاط فإنّه ينجز أعماله بشكل صحيح وتامّ ، وإلاّ فهو حتى لا يهضم ما يأكله ، الأمر الذي يسبب ضعف البدن .

فمن ابتلي بالحسد ، فعليه ألاّ يتوقع سلامة جسده ، فكثير من الأمراض منشأها الحسد ، ومن سلم من الحسد ، سلم جسده من هذه الناحية .

---

(١) نهج البلاغة .

من تجنّب الحسد حفظ إيمانه

أمّا بالنسبة للروح ، فالحسد يضعف الروح كـذلك ، ففي روايـة عن رسول الله (ص) قوله :

« . . . وإنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب »[1] .

لقد رأيتم كيف تلتهم النار الحطب ، فهو (ص) يقول بأنّ الحسـد يـأكل الإيمـان كذلـك ، فيذهب بـه ، كأنّـه أصلاً لم يكن ، فـإذا مـات الحسود مات دون إيمان ، ولو كان مصلّياً صوّاماً .

وفي رواية أخرى عن الرسول (ص) يقول مخاطباً أصحابه :

« ألا إنّه قد دبّ إليكم داء الأمم من قبلكم ، وهو الحسد ، ليس بحالق الشعر ، لكنّه حالق الدين »[2] .

كان هذا إنذاراً بالخطر أعلنه رسول الله (ص) لأصحابـه في أواخر عمره الشريـف ، يحذّرهم من مصير الأمم السالفـة ، والتي بعد وصـولها إلى الكمال والسعادة ، حدث ما ذهب بدينها ، وذلك هو الحسد ، حسد الأفراد للأنبيـاء ، والحسد نفسـه أودى بحياة ألوف الناس في (الجمـل) و (صفّين) ! .

حذار أن تضيعوا بالحسد ما كسبتموه !

وأرى من المناسب أن أذكّر المسلمين في بلدنا بهـذا القول الصـادر عن رسـول الله (ص) ، ذلك أنّنـا بفضل وحـدتنا وقيـادتنا الحكيمـة قـد وصلنـا إلى سعادة الحـريّة ، وغـدونا مـوضع إعجـاب العـالم ، لكن داء الحسد بدأ يـدبّ في صفوفنـا ، وخاصّـة في صفوف العلماء ، إنّـه الخطر

---

(١) أصول الكافي ، باب الحسد ح ١ .

(٢) سفينة البحار ج ١ ص ٢٥١ .

فاحذروا ! وإلّا فستسلب منّا نعمة الله هـذه ، بأيـدينا ؛ وهـا نحن نرى مافعله الحسد بـأسلافنـا ، استعرضـوا التاريـخ الإسلامي ، يتبـيّن لكم مقدار التعاسة التي حلّت بالمجتمع الإسلامي نتيجة للحسد ! .

الحسد يهلك العلماء

المرحوم صاحب (الجواهر) يقول في كتـاب الشهادة ، في حـديثه عن صفات الشاهد : يشترط الإسلام في الشاهد أن لا يكون حسـوداً ، فشهادة الحسود لا تقبل ، ذلك أنّه غير عادل .

وبتعبير آخر : الحسد من الكبائر ، وصاحب الجواهر يستـدلّ على كونه من الكبائر ، بالحديث المأثور عن رسول الله (ص) إذ يقول :

وموضع الشـاهد قـوله (ص) : « والعلماء بـالحسد » ، فمن تعلّم علمـاً لم يهـذّبـه ولم يـزّك نفسـه ، أودى بـه حسـده إلى جهنّم ، فهـو لا يستطيع أن يرى الناس يكيلون المديح لغيره ، في حين يرى نفسه الأحقّ بالمديح ! .

وأرى من الأنسب أن نصل إلى مطلوبنا من الرواية ، خاصّـة وأنّ الغد يصادف ذكرى المولد السعيد للإمام التاسع محمد الجواد (ع) ، لـذا سأروي لكم حديثاً أُثر عنه ، يتضمّن فائدة للطلّاب الأعزّاء ، أي : إنّ ما ذكرتـه عن أنّ الحسد يهلك العلماء ، لا يعني أنّـه يقتصر على طـلاب وعلماء الفقه ، فالحسـد كالمـوج يصيب الجميع بـرذاذه ، سواء كـانوا من أهل العلم الديني أو غيره ، فالطبيب مثلاً ، في خطر من الحسد أيضاً ، من موقفه بالنسبة لغيره من الأطبّاء ، بـل كلّ من بلغ مستـوى من العلم يهدّده الحسد ، لذا نرى إمام الأمّة يقول : سواء تخرّج أحدنا من مدرسة علمية أو من جامعة ، فإن لم يخرج منها مهـذّباً ، فخـطره كبير ، ونفعـه أقلّ من ضرره .

قاض حسود يسعى في قتل الإمام

لا بدّ سمعتم بقصة القاضي (أبو ليلى) مع الإمام الجواد (ع) ، فقد كان في أيام المتوكّل العباسي يحتلّ منصب قاضي القضاة ، وكان على رأس جهاز قضاء الخلافة حسب تسمية تلك الأيام .

كان لأبي ليلى صاحب يمتلك حانوتاً بالقرب من منزل القاضي يدعى الزرقاء ، وكان يتردد إليه في رواحه وجيئته ؛ جاءه يوماً وقد علاه الغم والقلق ، فسأله :

ما الأمر يا سيدي القاضي ، ولماذا أراك مضطرباً هكذا ؟ .

قال : لو تعرف أيّ مصيبة نزلت بي في مجلس الخليفة !! فقد أُتي بسارق ثبتت سرقته ، فسألني الخليفة ـ في صدد إقامة الحدّ عليه ـ عن المقدار الذي يتوجب قطعه من يده ، فأجبته : يقول تعالى في كتابه المجيد :

﴿ **السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾[1] .

كما أنّ اليد التي يتوجّب غسلها بنصّ آية الوضوء حدُّها المرفق ، تقول الآية :

﴿ **فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق** ﴾[2] .

لذا يتوجّب قطع يده من المرفق .

سأل الخليفة أحد القضاة الآخرين ، فأجابه أنّ القطع يجب أن يكون من مفصل اليد ، لأنّ آية التيمّم تحدّد ذلك إذ تقول :

﴿ **فامسحوا بوجوهكم وأيديكم** ﴾[3] .

فالتفت الخليفة إلى إمام الشيعة . الإمام الجواد (ع) ، وسأله رأيه فأجابه : لقد قالوا ما يرونه ! .

قال : أودّ سماع قولكم أنتم .

---

(١) سورة المائدة : آية ٣٨ .

(٢) سورة المائدة : آية ٦ .

(٣) سورة المائدة : آية ٦ .

قال : لقد قال الآخرون ! .

لكن الخليفة أصرّ على مسألته فأجابه (ع) .

يتوجّب القطع من الأصابع ، ذلك أنّ الله تعالى يقول :

﴿ وأنّ المساجد لله ﴾[1] .

فالمساجد : جمع مسجد ، وهي الأقسام من البدن التي يتوجّب وضعها على الأرض عند الصلاة ؛ فإذا أراد هذا السارق أن يصلّي فعليه وضع مساجده السبعة على الأرض ، الأمر الذي يمنع من قطعها ، وينبغي لذلك قطع الأصابع فقط .

أردف القاضي يقول :

ما إن قال الإمام قوله حتى صاح الخليفة :

أحسنت ، أحسنت ؛ ثم أمر فوراً بإقامة الحدّ طبقاً لرأي الإمام ، وتمّ قطع أصابع السارق .

وهنا شعرت كما لو أنّ العالَم وقع على رأسي ، فكيف بشابّ لا يتعدّى الخامسة والعشرين يتقدّم عليّ في الرأي ؟! إنّي قلق أشدّ القلق ، وما لم أفعل شيئاً فلن أجد إلى الراحة سبيلاً ؛ ومع علمي بأنّ من يسعى في قتل هذا الشاب لا بدّ سيرد النار ، غير أنّي لن أجد الراحة إلّا بقتله ! .

يقول الزرقاء : لقد نصحته فلم يستجب لنصحي ، بل يسارع من غده إلى الخليفة ، حيث يقابله على انفراد ويقول له :

أتعرف ما الذي فعلته بالأمس؟ لقد جئت بشخص يقول معظم المسلمين بإمامته ، ويعترفون بأنّه الخليفة لرسول الله بالحق ، وأنّك أنت على الباطل ، وبدلاً من أن تمحوه من الوجود تقدّمه وتظهر أمره ، وتعمل على تقويته ؟! .

والآن ، فأولئك الذين يقولون إنّه على الحق سيقولون :

---

(١) سورة الجن : آية ١٨ .

أرأيتم كيف يدرك الخليفة نفسه أنّه على الحقّ ، وكيف يقدّمه على الآخرين ؟! لقد وقعت في خطأ كبير ! .

وما زال بالخليفة يصب تقاويله في أذنيه حتى رضي بقتل الإمام (ع) ، وقرن رضاه بالفعل ، فدسّ له السمّ !! .

العلم بالحقائق ليس بالقراءة فقط

إنّكم ترون مقدار الخطر الذي يهدّد العالِم ، سواء أكان مجتهداً أم طبيباً ، ميكانيكيّاً أم مهندساً ؛ فهذه كلّها فنون تعرّض أصحابها للخطر .

أمّا ذلك العلم الذي يمتدحه القرآن المجيد ، وتمتدحه الأخبار بالقول : « العلماء ورثة الأنبياء » و« العلماء أمناء الرحمان » ، فهو النور الذي يشرق في القلب بتهذيب النفس ، إنّه نور الإيمان ، والعلم بوقائع الأمور وحقائقها ؛ العلم بفناء الدنيا وبقاء الآخرة ، وهذا لا يُنال بالقراءة فقط ، ذلك أنّ أصل الإيمان نور يفيضه الله على من كان لديه استعداد من بني آدم لتلقّي هذه الإفاضة .

الحاسدون يرفضون ولاية الأنبياء

اتّضح حتى الآن أن الحسد مرض يفوق في خطره ـ على روح ابن آدم ونفسه ـ مرض السرطان ، علاوة على تأثيره على الجسد ، الأمر الذي يوجب وقوعه صريع المرض .

والآن ينتشر هذا المرض بين المسلمين ، وبعضهم ممّن بلغ درجة عليا في العلم ، لكنه لا يستطيع إخفاء حسده فيما يقوله أو يكتبه ؛ إنه يرفض حتى ولاية الأنبياء ، فهل يريد الإسلام دون قائد ؟ أم هل يريد أن يكون أعداء المسلمين قادة للإسلام ؟ !

الحقيقة هي أن الحسد يدفع أولئك إلى التّصدي والخلاف ، فيدوسون في طريق حسدهم كل حقّ ، غير أن هذا الحسد لن يغني

عنهم شيئاً ، وكما قال أمير المؤمنين (ع) : « الحسود لا يسود » . ذلك أن الحسد يقف في طريقهم سدّاً يمنعهم من تحقيق ما يريدون ، بل هم لن يشمّوا ريح الجنة ، على قول بعض الروايات ، ذلك أن بلوغ الجنة لا يتفق مع الحسود ، إذ أن قلبه يطفح بالبغض والحسد ، ولن يشعر بالسعادة ، فتكون الجنة بمثابة سجن له .

إن الحاسدين يرون الآن أن أساس الحكم الإسلامي الفتيّ يرسخ ويشتد يوماً بعد يوم ، ويرون الشباب يفدون أنفسهم في سبيل عزة الإسلام ورفعته ، فيشتد أوار الحسد في قلوبهم ، ويحترقون بنارهم التي أضرموها بأنفسهم .

يوم صلاة الجمعة يوم بؤس للأعداء

إنهم خلال أيام الأسبوع ينفثون سموم حقدهم ضد الإسلام ، ويتهيّأ لهم أنهم بلغوا مرادهم ، فلا يوافي يوم الجمعة حتى يروا الصفوف المتراصّة والجموع المليونية تقف لأداء الصلاة ، فينقلب المشهد سهاماً تصيبهم في عيونهم ، إذ يشهدون عكس ما تمنّوا .

لقد رأوا نتائج فعالهم في عيد العمال ، فعميت منهم الأبصار بعد البصائر ، واكتشفوا أثر خداعهم للعمال الأعزاء .

إن النتيجة واضحة ، فهم مهما رسموا أو خطّطوا فإنّما يرسمون ويخططون عبثاً ، ذلك أن الأمر بيد الله ، وهو الذي يقدّر الأمور ويحدّدها ، ومهما توسّلوا للوصول إلى نشر فسادهم فإن الله لهم بالمرصاد ، أليس القائل :

﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، ويسعون في الأرض فساداً ، والله لا يحبّ المفسدين ﴾[1] ؟ !

لقد أطفأ الله نار فسادهم ، فراحوا يتراجعون بعد أن اتّضح للناس نفاقهم ، وما تنشره الصحف خير شاهد .

---

(١) سورة المائدة : الآية : ٦٤ .

البحث الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

العلم ـ كالمال والمقام ـ يدعو للكبر

تـذكرة مهمّـة يجدر بـالطلّاب والجـامعيّين الأعـزاء ، في أيّ فـرع كانوا ، أن يلتفتوا إليها ، إنّها خطر كبير إن لم تتداركوه ضاعت جهودكم هـدراً ، ألا وهو خـطر الكبـر ؛ وهـو خطر ينتشر في الـطبقات كـافّـة ، وخاصّة لدى أهل العلم .

فكـلّ علم ، كلّ هـذه المعلومات يمكن أن تكـون سببـاً للكـبر المهلك . كما هلك إبليس ، فقد ورد في الروايات أنّ أول معصية وقعت في الأرض كانت الكبر بواسطة إبليس ، فقد سقط بتأثـير الكبر ، وغـدا رجيماً ملعوناً .

والآن ، ما معنى الكبر ، ثم ما مدى خطره ، ثم أخيراً لمـاذا يبتلى به أهل العلم على الخصوص ؟ هذا ما سنوضّحه لكم .

الكبر هو أن يتخيّل ابن آدم لنفسه شأناً وقدراً وخصوصيّة ، فيرى نفسـه مستغنيـاً غـير محتـاج ، فهـو بعـد أن يتعلّم بعض المصـطلحـات والشروح والتفاسير يتوهّم نفسه شيئاً ذا قدر ، أو هو إذا رُزق مالاً كثـيراً توهّم أنّه أصبح مستغنياً ؛ فـالجاه والمقـام بعد العلم ، مصـدر للابتـلاء

بالمزيد من الكبر ، فإذا ما بلغ منصب الرئاسة ، رأى في نفسه نـوعاً من العَظَمة .

نسيان العبودية سببه الجهل المركّب

خطر الكبر هو أنّه يَبعدُ بصاحبـه عن معنى العبوديـة ، ويرميـه في مهاوي الجهل المركّب ؛ فهو لا يدرك الجهل الذي هو واقـع الأمر ، بـل هو يكتشف تخيلاته وليس الأمور الواقعيّة .

فمن هذه الأمور مثلاً : أنّ كلّ موجود ، وفي أي مرتبة كان ، من الشخص الأول في عـالم الـوجـود النبي الخـاتم (ص) ، حتى آخـر المـوجودات ، وفي مـراتب الوجـود كافّـة ، إنّما هـو في فقر ذاتي ، وفقـر وضعيّ ، وفقر فعلي ، وهذا من مسلّمات الواقع ؛ فكلّ مـوجود يتصـوّر أنّه ـ باعتبار ذاته ـ مستغنٍ غير محتاج ، فإن وجوده حدوثاً وبقاءً ليس من ذاته .

فعلى كل إنسان أن يفكّر : هل إن وجوده قائم باختياره ، بحسب الـذات ، أم أنّه وُهِبَ حيـاته دون إرادتـه ، وتحقّق رفع احتيـاجـه دون مشيئته؟ ودون أن يشاء ، فقد أعطيت لحياته صفـة الاستمرار ، حتى لـو توفّرت أسباب موته ، فلن يموت إذا لم يشأ الله له الموت ؟ .

ليست حياته فقط خـارج إرادته ، بـل إنّ موتـه أيضاً خـارج عن إرادتـه ؛ حتى أنّ تجرّعـه للسمّ أو مقتله ، هو بعـد المشيئة الإلهيّـة ؛ فلو شـاء الله له المـوت بتجرّع السمّ لمـات ، وإن لم يشأ ، فلن يكـون للسمّ أيّ مفعول ! .

يستعمل وسيلتين لقتل نفسه . . لكنه لا يموت !

قرأت في مجلة قبل قليل قصّة عن رجل قام بتشييد بضع طبقات من

مبنى في مدينة (نيويورك) بملايين من الدولارات اقترضها من أحد المصارف ، على أن يسدّدها مع فوائدها بالتدريج ؛ وبعد أن استكمل نصف المبنى ، وقع في ضيق أعجزه عن إتمام النصف المتبقّي منه ، كما لم يقبل أحد أن يعطيه قرضاً .

وراحت تتراكم عليه مع مرور الأيام مبالغ كبيرة تدعو للهذيان ، في حين أنّه لم يستكمل من المبنى سوى نصفه ، فلا أحد يرضى باستئجاره منه ، وضاقت بالمسكين السبل ، فقرّر الانتحار ، وعزم على أن يلقي بنفسه من الطبقة العليا للمبنى ! .

فكّر التعيس فيما آلت إليه حاله ، وتساءل في نفسه :

وماذا لو لم أمت من السقطة ؟! الأفضل لي أن أتجرّع السمّ أولاً ، ثم أرمي بنفسي ، ولا بد أن يكون لأحد هذين السببين مفعوله ! .

تجرّع الرجل مقداراً من السمّ ، ثم ألقى بنفسه من الطبقة العليا من المبنى ؛ واتّفق أن أخشاب البناء كانت لا تزال منصوبة ، فاصطدم أثناء سقوطه بواحدة منها ، فاستفرغ السمّ الذي كان قد تجرّعه ، ولم تؤدّ السقطة إلى موته ؛ وهكذا فقد كلا السببين مفعوله وتأثيره !! .

فإذا لم تتحقّق المشيئة الإلهيّة ، فلن يكون للأسباب ـ وإن وجدت ـ أيّ تأثير ! والشواهد على هذا الأمر لا تحصى .

الفقر الذاتي ، والوضعي ، والفعلي للموجودات

علينا أن نفهم معنى الفقر الذاتي ، فندرك حق الإدراك واقع أنّ أصل الوجود والحياة ليس بأيدينا ، إنْ حدوثاً ، أو بقاءً ، أو زوالاً :

﴿ ولا يملكون لأنفسهم ضَرّاً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ﴾[1] .

---

(١) سورة الفرقان : آية ٣ .

فكما أنّ الحياة ليست بأيدينا ، فالموت كذلك ليس بأيدينا ، فنحن إنّما يؤتى بنا إلى هذه الدنيا بدون اختيار منّا ، وتجري رعايتنا وحفظنا وتربيتنا ، ثمّ . . . يؤخذ بنا !! .

فالفقر الذاتي هو في أنّ الموجودات كافة محتاجة إلى الله في أصل وجودها ، والله وحده « هو الغني » المحض ، هو الغنيّ المطلق لا غير ؛ فكل من هو غير الله محتاج إلى الله .

كما أنّ كلّ موجود محتاج إلى الله بالنسبة إلى الوصف والفعل أيضاً ، فكل عمل يريد أن يقوم به يحتاج إلى القدرة ، فمن يستطيع إيجاد القدرة في نفسه ؟! .

فكم من الأعمال تبدو هيّنة ، لكنّها لا تتحقّق ! وكم من الأعمال تبدو صعبة وغير قابلة للحدوث ، لكنها تقع ، ودفعة واحدة ! .

فلا تقل إذاً : سأفعل هذا ! فهل تتوفّر لك القدرة اللازمة لإنجاز هذا العمل ؟ فأصل ذاتك ليس منك ، حتى تكون إحدى أوصافها ـ وهي القدرة ـ منك !! « ولا حول ولا قوّة إلّا بالله » ، فمن يستطيع ـ من نفسه ـ أن يمدّ رجله على البساط ؟! على الإنسان أن لا ينسى ، فنفس نفسه محتاجة .

العالِم أيضاً محتاج في علمه إلى الله

العلم مهما علا مستواه لدى إنسان ، فلن يجعله مستغنياً ، فهو لو صار مجتهداً ، أو مهندساً ، أو طبيباً ، فلن تخرج ذاته عن طوق الحاجة ؛ نفس الحاجة الأولى في وجوده ؛ فالاحتياج جزء من ذات الإنسان ، وما دام في وجوده محتاجاً ، فعليه أن لا ينسى أبداً هذا المعنى .

الذاكرة هي مستقرّ العلم ، فمن يرعى ويحفظ هذه الذاكرة إلى ما شاء الله ؟ .

كان أحد الأفاضل ـ قبل خمسين سنة ـ ممّن يعطون دروساً لمدّة طويلة ، واتّفق أن أصيب رأسه ببلاء ، فاستيقظ من نومه يوماً ، وإذا به ينسى سورة « الحمد » ، وحين اتّجه إلى مجلس درسه المعتاد ، سيطر عليه عارض النسيان ، فغدا كما لو أنّه لم يعط درساً من قبل ، ولم يحضر مجلساً ، حتى لقد نسي قول : « باسم الله » !! .

الذاكرة تختزن المعلومات كما يختزن شريط التسجيل الأصوات ، وقوّة الذاكرة هي من الأدلّة على تجرّد النفس ، إذ لا يمكن اختزان نقوش لا نهاية لها في جسم ماديّ (لأنّ الجسم الماديّ محدود ، ولا يتّسع لاختزان ما لا يحصى من المعلومات) .

فما تلقّاه العالم منذ صغره ، ألف باء ما قرأه ، بقي في ذاكرته ؛ فلو انتُزعت هذه الذاكرة منه ، لنسي حتى الألف والباء ، فالعالم إذاً ، محتاج حتّى مع علمه ! .

الطبيب الذي أخطأ في علاج ولده

عندما يتعهّد الطبيب ذاكرته ويرعاها يستطيع الاستفادة ممّا قرأه وتعلّمه ، ويصبح بمقدوره وصف العلاج المناسب لمريضه ؛ أمّا إذا لم يفعل ، فكيف ؟! .

قبل حوالي ثلاثين سنة ، أصيب ابنٌ لأحد الأطبّاء بارتفاع في حرارته ، فتخيّل الطبيب أنّ ابنه مصاب بالملاريا ، فوصف له دواء للملاريا ، في حين أنّه كان يعاني من الحصبة ، ومداواته بدواء الملاريا منافية لإصابته ؛ فلم يلبث الولد إلّا أياماً حتّى توفّي ! .

بالطبع ، لا يمكن لأب عطوف إلّا أن يسعى جاهداً كي يشخّص إصابة ابنه العزيز عليه تشخيصاً صحيحاً ، ويعطيه من ثَمّ الدواء المناسب ، غير أنّها مشيئة الله .

كان عندنا طبيب متديّن ، رحل إلى رحمة ربّه ، وكان يروي لي بعض ما يجري معه ، قال :

كنت أصف بعض الأدوية أحياناً ممّا لديّ يقين بجدواه مئة بالمئة ، غير أنّي أفاجأ بأنّها تفتقد أي تأثير مجدٍ على المريض ؛ وكنت في أحيان أخرى أصف للمريض دواء أحتمل تأثيره فقط ، فإذا بتأثيره يكون إيجابيّاً مئة في المئة ! ونعلم من هذا أنّ التأثير من الله وحده .

والمجتهد كالطبيب ، فإن أمر احتياجه باقٍ في جميع شؤونه ؛ فلا ينبغي لذلك أن يدعوَ العلمُ ـ مهما بلغ ـ إلى الكبر ؛ فيرى العالم نفسه في غنى ؛ قال تعالى :

﴿ .. إنّ الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾[1] .

إنّه يغترّ ويتمرّد ، فيرى نفسه مستغنياً ، إنّه يتصور ويتخيّل ، فيبعدُ به الخيال عن الواقع ، وهو كونه في احتياج دائم ، فعليه أن يصرف عنه هذا التصوّر الواهي .

على العالِم أن يكون متواضعاً

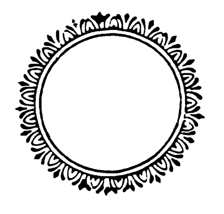
ليس للمجتهد أو الطبيب أو المهندس أن يتخلّى عن تواضعه ، فلا يعتبر فرقاً بينه وبين الإنسان العامّي ؛ تماماً كما لا ينبغي لمالك الملايين أن يميّز نفسه عن الفقير ؛ فهو إنّما جمع هذه الملايين انطلاقاً من حاجة ، فمن هو الغني ؟ لو أصيب بالسرطان ، فهل ستنجيه ملايينه من الهلاك ؟ هل الأموال التي اختزنها الطغاة في الخارج ، كانت ذات نفع لهم ؟! .

غنيّ عن القول : إنّ هذه الأمور تعود للشخص نفسه ، أي : لا

---

(١) سورة العلق : الآيتان ٦ و ٧ .

ينبغي لمن بلغ مستوى الاجتهاد أن يغترّ بنفسه ، فينظر باحتقار إلى الآخرين ، ويتوقع منهم تقديم الإجلال والاحترام لشخصه ؛ أمّا واجب الآخرين فهو أن يكرموه ، فأهل العلم يستحقّون الإكرام ، وخاصة أهل العلوم الدينيّة ، الأمر الذي وردت بشأنه الأحاديث والأخبار الكثيرة ، والمفصّلة ، وأنّ إكرامهم إنّما هو إكرام لرسول الله (ص) ، كما أنّ توجيه الإهانة للعالم ، إنّما هو إهانة لرسول الله (ص) .



الى [illegible] بالخفية [illegible] الا [illegible]

[illegible] منه وقوعه [illegible] الأخرى

[illegible] وأما [illegible] الأخرى

[illegible] الا [illegible] وأما

[illegible] ([illegible]) [illegible]

[illegible] ([illegible]) [illegible] علة [illegible] الا [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

البحث الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بأقوال علي (ع) علاج للكبر

يجب بداية معرفة معنى الكبر ، ثم معرفة أسباب ظهوره ، وبعد ذاك يتّضح كونه من الكبائر .

الكبر حالة تظهر في النفس ، وتنعكس آثارها رؤيةً للنفس فيها امتياز عن الآخرين ، فيرى المتكبر نفسه ذا شأن ومقام ، إذ تمّحي الواقعية عن إدراكه ، ويقع في الوهم الباطل .

الفرد منا ـ في الواقع ـ لا شيء ، إنّه العجز مجسّداً ؛ فالأبدان كلّها من هذا التراب ، وتراباً ستعود ؛ والنفس التي في البدن هي في كمال العجز والفاقة ، فلا كبر لمخلوق (بالذات) ، فدوام حياته ، ومرضه وسلامته ، وغناه وفقره ، كلّها أمور ليست بيديه .

يقول أمير المؤمنين (ع) كما في نهج البلاغة :

« عباد مخلوقون اقتداراً ، مربوبون اقتساراً ، مقبوضون احتضاراً » .

فذات ابن آدم غرض للعجز والعدم والحقارة ، فعنه (ع) في قول آخر :

« عجبت لابن آدم ، أوّله نطفة ، وآخره جيفة ، وهو قائم بينهما وعاء للغائط ، ثم يتكبّر »[1] !! .

في سلوكه الكبر ، ويرى نفسه ميزاناً للحقّ !

كثيرة هي الذنوب التي تصدر عن الإنسان وتعود أسبابها إلى الكبر الذي إذا لم يجر إصلاحه وتداركه كان بدوره سبباً يدفع المتكبّر إلى إنكار كلّ حقّ ، حتى أنّه يقف في وجه إحقاق الحقّ ، في حين يرى نفسه ميزاناً للحق !! .

« الأنا » تصبح عنده ميزاناً للحقّ ، فكل ما يوافق رأيه وطريقة سلوكه فهو الحقّ ، ويبتعد بذاك عن طاعة أولياء الله ، ويتمرّد على أولي الأمر ؛ كمن تكبّر أمام أمير المؤمنين فلم يبايعه ، ثم حين بايعه فيما بعد ، تمرّد عليه !! .

فهذا هو الكبر ، حين يغذوه صاحبه ، فيربو ويزيد ! .

الكبر بالمال نتيجة للجهل بالواقع

أولاً : **المال** ـ في البدء يوجد المال ، ويزيد المال وتكبر الثروة ، ومن الطبيعي أن يزيد المال ، فيكبر معه الجاهل ويتكبّر ، فالجهل ـ كما سبق القول ـ هو أصل الكبر ؛ وإلّا فمن كان عاقلاً ، ومن كان مدركاً حقّ الإدراك ، يفهم أنّ المال لا يزيد في ذات ابن آدم شيئاً ، فما الفرق ـ في الواقع ـ بين من يمتلك المليارات وبين من لا شيء لديه ؟ أمّا حين يزيد المال ويكثر ، ويرى صاحبه في نفسه امتيازاً على الفقير ، فهنا الكبر .

---

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ٤٦٠ .

لا بـد سـمـعـتـم قـصـة المـوسر والمعسر إذ كـانـا في محضر رسول الله (ص) ، فعن أبي عبد الله (ع) قال :

« جـاء رجل مـوسر إلى رسول الله (ص) ، نقيّ الثـوب ؛ فجلس إلى رسول الله (ص) ، فجاء رجل معسر درن الثوب ، فجلس إلى جنب الموسر ، فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه .

فقال رسول الله (ص) :

أخفت أن يمسّك من فقره شيء ؟! .

قال : لا .

قال : فخفت أن يصيبه من غناك شيء ؟ .

قال : لا .

قال : فخفت أن يوسّخ ثيابك ؟ .

قال : لا .

قال : فما حملك على ما صنعت ؟ .

فقال : يا رسول الله ، إنّ لي قريناً (أي الشيطان) يـزيّن لي كلّ قبيح ، ويقبّح لي كلّ حسن ؛ وقد جعلت له نصف مالي ! .

فقال رسول الله (ص) للمعسر : أتقبل ؟ .

قال : لا .

فقال له الرجل : ولم ؟ .

قال : أخاف أن يدخلني ما دخلك »[1] ! .

يحدث أحياناً أنّ زيادة الثروة تدعو لزيادة الجهل كذلك ، فيتصور

---

(١) أصول الكافي ، باب فضل فقراء المسلمين ح ١١ .

الموسر أنّ شيئاً في ذاته قد كبر ، فيبدي الكبر تجاه الآخرين !! .

الكبر بالعلم خطر

ثانياً : العلم ـ ما هو أسوأ من المال، إنّما هو العلم، إذ يحدث أن يدّخر أحدهم قسطاً من المعلومات مثلاً ، ثم يغادر مدرسته أو جامعته ، وفي تصوّره أنّ ما حصل عليه من بضعة مصطلحات إنّما هـو شيء عظيم استقرّ في نفسه ، فينـظر إلى الآخرين نـظر احتقار ، فـإذا كانت معـرفته تلك معرفة دينيّة (كالفقه والأصول مثلاً) ، فوَضْعُه أسوأ بكثـير ، ذلك لأنّه يتصوّر أنّ قول رسول الله (ص) : « العلماء ورثة الأنبياء »[1] إنّما هو راجع إليه ! وما على الآخرين الآن إلاّ أن يدينوا له بالطاعة !! .

فخطر الكبر لدى طلاّب العلوم الدينيّة أسوأ منه لـدى الآخرين ، إذ الكبر لدى هؤلاء إنّمـا تظهـر آثاره في الأمـور الماديّـة ، أمّا في النـاحية الـدينيّة فهـو مـرتبط بـالجـاه والمقـام ، فـالتسلّط عـلى المقـام تسلّط عـلى القلوب ، إذ تزيّن له النفس لـزوم التقدّم عـلى الآخرين ، وتقـول له : أنت أوفـر علماً من فـلان ، وتوهمـه أن بضع كلمات قـرأهـا زيـادة عن الآخر تميّزه عنه ! .

فإذا لم تزده المعرفة زيادة في نور الإيمان لديه ، فما الفرق بينه وبين الآخر العامّي ؟! لا بل إنّ ذلك العامّي الذي قـادته عامّيّته إلى الشعـور بالعجز والانكسار ، أفضل بمراتب من ذلك العالم الذي لم تـزده المعرفـة إلاّ كبراً وغروراً ، ذلك أنّ المقام يرتبط بالإيمان والعمل ، والعلم الـذي له هذا القدر من الأهميّة ، إنّما هو العلم بالله واليوم الآخر ، إنّه نـور في القلب يكسب صاحبه المزيد من الخشوع .

---

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ٢٢٣ .

إنّي أقلّ الأقلّين

لو تفحّصنا كل من كان له اهتمام بعلم التقدّم والارتقاء لـوجدنـاه أمام الإمام (ع) أشبه بقطرة إلى بحر ؛ ولو كان هو نفسه مدركاً لاعترف بذلك حتماً . وانظروا إلى الإمام (ع) ، الذي هو معدن العلم ، والذي عنده العلوم كافّة ، وانظروا ماذا يرى .

يقـول الإمام زين العـابدين (ع) في دعـاء (عرفـة) من الصحيفة السجّاديّة :

« وأنا بعد أقلّ الأقلّين ، بل أقلّ من الذّرّة » .

فالإمام المعصوم يقول هذا القـول ، ويقرّ بعجزه وذلّته ، بينما من يتوهّم نفسه عالماً يتكبّر ويقول : أنا أفضل من فلان ، وأعلم منه ! .

معيار القرب عند الله التقوى ، فمن يعمل ليكون عالماً دينيّاً عليه منذ البداية أن يعرف حدّ المخلوق ، وأن لا ينسى عجزه وافتقـاره ، وأن لا يرى نفسه أفضل من الآخرين ؛ أن لا يقول : ذاك من العامّـة ، وأنا من الخاصّة ! فماذا يعني هذا ؟ فـريق كبير العـدد ، وفريق قليله ، فهـل يتكبّر القليل على الكثير ، بحجّة أنّهم أكثر معرفة منهم ؟! .

« إنّي أشعر أمامكم بالحقارة »

أمّا إذا أصبح عالماً حقّاً ، فهو يـدرك أنّ المعيار شيء آخـر ، فتراه يقول :

لعلّ هذا الـذي يقلّدني ويتبعني ، سيكون من أهـل الجنة غـداً ، وربّمـا أكون أنـا من أهل النـار ، فمن يعلم ؟ وعندهـا يزداد تـواضعاً ، ويرى نفسه أكثر عصياناً من الجميع .

قبـل قليل ، سمعنـا إمام الأمـة يخـاطب الشبـاب المتـوجّهـين إلى الجبهة بقوله : إنّي أشعر أمامكم بالحقارة ! .

هذه الجملة تكشف عن سعة اطّلاع قلب هذا الرجل الكبير ، فأنتم بما أنتم عليه من الإيمان والإخلاص تجعلونني أشعر بالحقارة أمام بذلكم أنفسكم في سبيل الله ! .

لو رافق التواضع هذه العلوم والمعارف فهو أمر حسن ، وإلاّ فالشيطان كان يعرف الكثير ، لكن سوء حظّه جعله يتكبّر ؛ وبلعم بن باعورا كان عالماً أيضاً ، لكنّه واجه نبيّ الله موسى (ع) ، وقال : لئن كان موسى مرسلاً من أجل بني إسرائيل ، فإنّما أنا من أجل العمالقة ! وأوقعه كبره في الغرور فأهلكه ! .

ويل لرجل الدين المتكبّر !! وكذلك للجامعيّ المغرور ! .

ليس الفخر كالتفاخر

ثالثاً : **الجاه** ـ ويعني الشهرة والمكانة الاجتماعية ، بسبب النسب حيناً ، كأن ينتمي أحدهم إلى القبيلة الفلانية ، أو أن يكون ابناً للمسؤول الفلاني في الدولة ، هذا النسب الموهوم الذي يدفع إلى التعالي على الآخرين ، فترى أحدهم يأبى الزواج من عائلة معينة ، غروراً منه ، إذ يرى نفسه أفضل منهم .

أو الكبر بسبب السيادة حيناً آخر ، السيادة أي أن يكون الشخص من سلالة النبي (ص) ؛ إنّكم ترون كيف كان رسول الله (ص) نفسه ، وهو القائل بأنّه يجلس على الحضيض ، ويبدأ غيره بالسلام ، ولا يستثني في سلوكه هذا حتى الأطفال ، ثم يأتي هذا السيّد ، فينتظر من الآخرين إجلاله ، أليس بسيّد ! في حين أنّ من أكسبه شرف السيادة يتصرف بكامل التواضع ! والحق أنّ ما يستلزمه هذا النسب الشريف هو أن يصحبه الافتخار بذلك الرجل العظيم محمد (ص) ، وليس التفاخر على الآخرين ! .

أكثر الأشياء ضرراً للقلب ، حبّ الرئاسة

الكبر بالأتباع خطره أكبر ، والسقوط كذلك فساده أكبر ؛ فإذا ما ظهر التطلّع إلى الرئاسة عند أحدهم ، ابتلي بمرض الكبر ؛ وكل إنسان يبتلى ـ في حدود ذاته ـ ببلاء يصعب التخلّص منه ، فإذا ابتلي بحب العلوّ فإن مرض الكبر لديه يستفحل يوماً فيوماً .

الكبر موجود لدى الجميع ، غير أنّ سبب تفاقمه وزيادته يتوفّر في هذا الشخص ، أكثر ممّا لدى غيره ، وما لم يسقط من عليائه فهو لن يتخلّص من هذا البلاء .

ومن المناسب هنا الاستشهاد بحديث عن رسول الله (ص) ، يقول فيه :

« ما أضرّ بقلوب الرجال من خفق النعال »[1] .

أي أن يسير الرجل وأتباعه خلفه ، يخفقون بنعالهم ، وهذا من مظاهر حبّ الرئاسة .

فوجود أولئك الأتباع مدعاة للتعالي ، حتى يصل به الأمر إلى عدم الرضوخ للحق ، بل ومناهضته ؛ كما لا يرضى المتعالي لأتباعه أن ينضمّوا إلى غيره ، فهو الأولى بالاحترام والاتّباع ! لذا فأبو عبد الله (ع) يقول :

« من طلب الرئاسة هلك »[2] ، وعنه أيضاً : « ملعون من ترأس »[3] .

فهو بعيد عن رحمة الله ، ذلك أنّ الكبر بالأتباع عملٌ يوسوس لصاحبه بأنّه نفسه معيار الحق وميزانه ؛ فلو بدر عيب مثلاً من أحد

(١) الكافي .

(٢،٣) سفينة البحار ج ١ ص ٤٩٢ .

يلوذ به ، فهذا ليس مهمّاً في نظره ، ويجب إخفاؤه وتغطيته ، لأنّه صدر عن أحد أتباعه ! أمّا من كان غير تابع له ، فهو أسوأ الناس ، ولو كان فاضلاً ! وهو يعمى عن أمرين : عيوب جماعته ، ومحاسن الآخرين ، ذلك أنّ عين الحق عنده مطفأة ! .

التعصّب عند عالم ليس أهلاً لعلمه

في (رسائل الشيخ) رواية مفصّلة عن الإمام الحسن العسكري (ع) في باب حجّيّة خبر الواحد ، يتحدّث فيه (ع) عن عالم السوء الذي يكون ضرره للمسلمين أكثر ، ويورد من بين أوصافه ، اتّصافه بالتعصّب ، فهو يُعلي من شأن أتباعه ولو اتّصفوا بالفسق ، ويهمل شأن الآخرين ، ولو كانوا من ذوي الفضل .

فعلى من روادته نفسه بحب العلوّ ، وابتلي ببلاء حبّ الرئاسة أن يعمل عملاً تكون فيه نجاته ؛ فالعاقل يفرّ من الرئاسة ، كي لا يضطرّ لمجانبة الحق .

قصد خدمة الخلق ليس طلباً للرئاسة

لا ينبغي هنا الوقوع في المغالطة ، ففي الإسلام يلزم وجود الحاكم ، ووجود القاضي ، ووجود رؤساء المناطق والإدارات ؛ والمقصود هو أن لا يكون الشخص من طلّاب الرئاسة والزعامة والعلوّ ، أمّا إن أسند إليه منصب يقوم فيه بخدمة الخلق فهذا حسن ؛ فهو لا يريد أن يحكم المنطقة الفلانيّة ، إنّما يريد أن يدير شؤونها بما فيه مصلحة الناس ، فالخطر إنّما يكمن في الطلب والرغبة ، في حب المنصب طلباً للرئاسة .

داود (ع) يأكل خبزه من بيع الدروع

علاج الكبر هو التواضع

يروى عن داود (ع) ، وكان نبيّاً وحاكماً ، ومن طلّاب الرئاسة ، أنّه جاءه النداء : يا داود ، أنت عبد صالح ، غير أنّك ترتـزق من بيت المال !

راح داود يبكي ويئنّ ، ويستغفـر لما قـدّمت يداه ، أربعـون يومـاً وليلة مرّت عليه وهو في أسوأ حال من الندم والخجل ؛ ثم أوحي إليه : أن اصنع الدروع وارتزق منها : « وألنّا له الحديد » .

شرع داود (ع) يصنع الدروع ويعيش على مـردودها ؛ ويروى أنّه كان يبيع الـدرع الواحـدة بثلاثمئـة درهم ، يتصدّق بمئـة منها ، ويـودع بيت المال المئة الثانية ، وينفق المئة الثالثة على معاشه .

كذلك يروى عن ابنه النبي سليمان (ع) ـ وهو من دانت لـه الجانّ بالطاعة ـ أنّه كان يرتزق من صنع الزنابيل ! .

العمل للأكابر علاج للكبر

يعـرف من الـروايـات من هـذا القبيـل أنّ من وصـل إلى منصب رئـاسي ، إذا ساوى في طـرز معيشته بـين نفسه والآخـرين ، أي بتعبـير آخر : إذا كان متواضعاً فهو إنّما يحول دون سقوطه في الكبر ، فـلا يرى نفسـه رئيساً ، يجلس خلف مكتبـه ، ويقف الآخرون أمـامه ، يتلقّـون أوامره ، أما العمل ، فلا شأن له به ! .

ويروى كذلك أنّ الإمام الصـادق (ع) أمر محمـد بن مسلم ، وهو من كبـار أصحابـه أن يبيع التمـر في طبق يضعه أمـام مسجد الكـوفة ، فتقبّل محمد أمر الإمام (ع) بكل رضى وترحاب ، مع كـونه من الأجـلّاء

المعروفين ، وذلك لمعرفته أنّ هذا الأمـر يستبطن عـلاجاً ، فـالكبر يجب دفعه ، ولو ببيع التمر ! .

عوّد نفسك على الحذر من إصدار الأوامر

ممّا يتوجّب الحذر منه ، التعوّد على إصدار الأوامر ، ففيه إحساس بالكبر .

ينقل بعض الثقات عن المرحوم الميزرا محمد تقي شيرازي أنّه كان يحاذر إصدار الأوامـر ، حتّى في بيته ؛ فكـان لا يطلب إحضـار طعام أو رفعه ، وكان إذا ما غفلوا مرّة وأحضروا لـه عشاءه ، ووضعـوه أمامـه ، بقي دون طعام حتى الصباح .

أنا لا أقول ، بالطبع ، إنّ هذا حـرام ، فهو ليس كـذلك ، لكنّ من أراد أن يكـون بحقّ رجـلاً ، فعليـه أن يمسـك نفسـه عن الميـل إلى العلوّ ، عليـه أن يدرّب نفسـه ويـروضهـا ، فيجتنب التسلّط حتى عـلى زوجه وأولاده .

انتهى الكتاب بعون الله



المحتويـات

